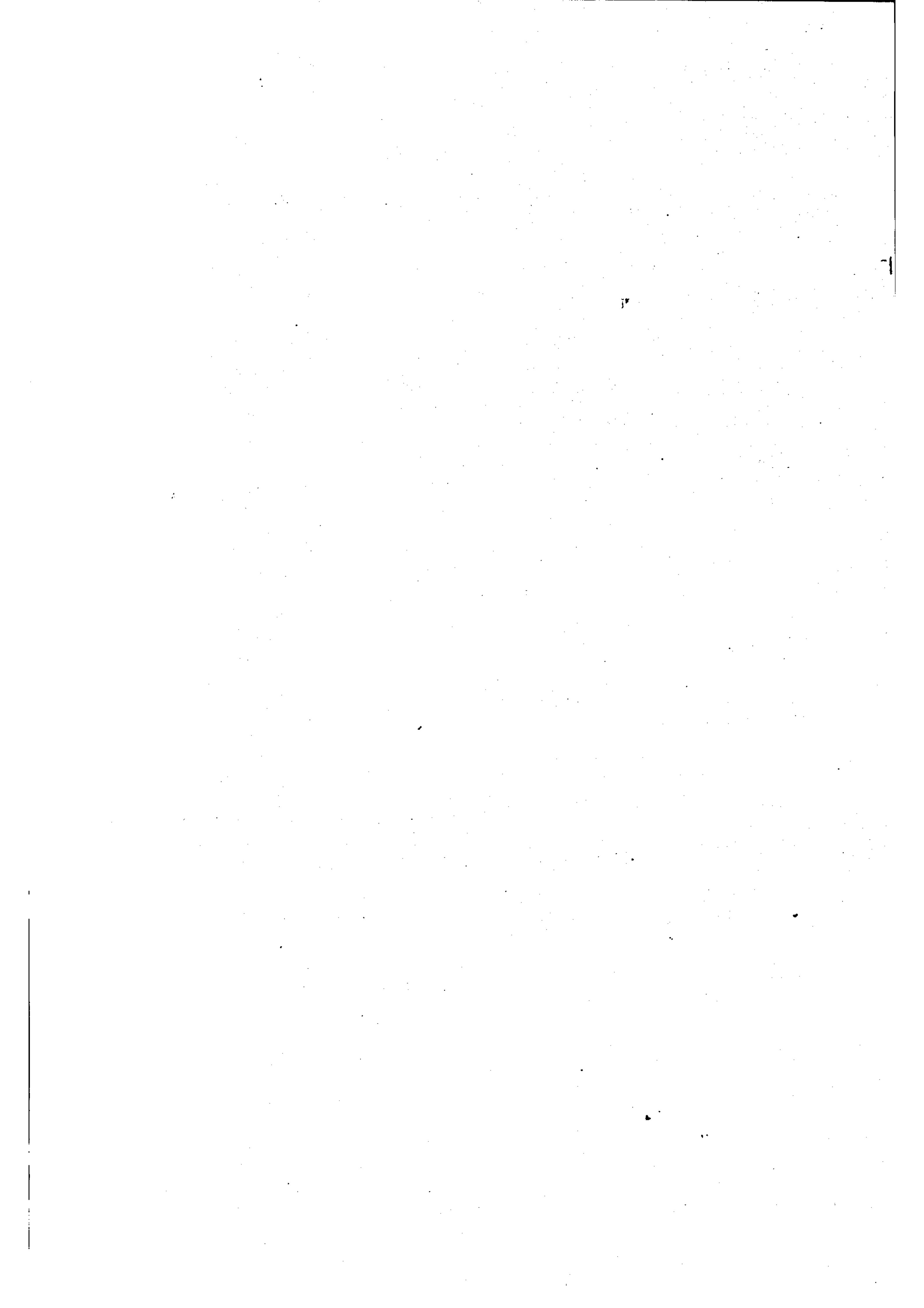
نظرية الإمامة



نظرية الإمامة
بين الشيعة والمتصوفة

دكتور
محمد على محمد الجندى

كلية الدراسات العربية
جامعة المنيا

الناشر
مكتبة الزهراء

الطبعة الأولى

١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه ، ومن والاه إلى يوم الدين ..... وبعد .

فهذه دراسة تهدف إلى إبراز جوانب الاتصال ونواحى الاتفاق أو الاختلاف بين مفهوم الإمامة عند الشيعة ، ومفهوم الولى والقطب عند المتصوفة ، ونظراً لاتساع مجال هذه الدراسة لشمولها على فرق واتجاهات متعددة سواء فى مجال الشيعة أو التصوف ، لذلك فقد قصرنا أنفسنا على بحث نظرية الإمامة عند الشيعة عند أبرز فرقتين من فرق الشيعة ، هما الشيعة الإمامية الإثنى عشرية والشيعة الباطنية الإسماعيلية ، ذلك لأن الفرقة الأولى تتعرض بطريقة أنطولوجية ، ولاهوتية ، وسياسية لفكرة الإمام وصفاته وسماته التى يجب أن يتميز بها ، كما أن الفرقة الثانية طرحت مشكلة الإمامة من منطلق التفسير والتأويل الباطنى للنص القرآنى لإسباغ صفة التألية على أئمتهم ، وخلع صفات متفردة عليهم تجعلهم فى مرتبة أعلى من مرتبة الأنبياء (إلا محمداً ﷺ) .

أما فى مجال التصوف فسنقصر أنفسنا - أيضاً - على عرض أبعاد الطريق الصوفى للسالك وكيفية التدرج منه والعلاقة بين الشيخ والمريد . ثم نوضح بعد ذلك طبقات المجتمع الصوفى ونظام الولاية ... وموقع الأقطاب منه محاولين إلقاء الضوء على مدى الاتصال بين نظريتى الإمامة والولاية بين الشيعة والمتصوفة ومدى تأثرها بظروف المجتمع الإسلامى وبآية روافد أجنبية خارجية ، والله من وراء القصد إنه نعم المولى ونعم النصير .

دكتور محمد الجندى

* * *

تمهيد

تختلف الآراء فى تحديد بداية ظهور التشيع اختلافاً لا مثيل له بالنسبة لظهور الفرق الأخرى ، وذلك لأن عقائد الفرق ظهرت وثيقة الاتصال بالأحداث التاريخية ، فبالنسبة للتشيع فقد كانت هناك عدة أحداث لها أثرها فى المذهب الشيعى ، فاختلف الباحثون فى مدى أهمية كل منها ، واعتبارها نقطة البداية فى نشأة المذهب ، ولعل أهم هذه الأحداث السياسية التى ارتبطت بنشأة التشيع ما يأتى [1] :

أولاً : وفاة النبى ﷺ ، واجتماع السقيفة وتخلف « على » عن البيعة .

ثانياً : الفتنة زمن عثمان ، والتى بلغت الذروة بمقتله .

ثالثاً : موقعة صفين والتحكيم .

رابعاً : مصرع الحسين .

ومن الباحثين من يجعل نقطة البداية فى التشيع زمن النبى نفسه يقول محمد الحسن آل كاشف الغطاء : « إن أول من وضع بذرة التشيع فى حقل الإسلام هو نفس صاحب الشريعة الإسلامية ، بمعنى أن بذرة التشيع وضعت مع بذرة الإسلام جنباً إلى جنب سواء بسواء ، ولم يزل يمارسها

(١) د . أحمد صبحى : نظرية الإمامة لدى الشيعة الإثنى عشرية ، دار المعارف سنة ١٩٦٩ ، ص ٢٩

ويتعهدها بالسقى والعناية حتى نمت وازدهرت فى حياته ثم أثمرت بعد وفاته [1] .

وهكذا يحرص متكلمو الشيعة وعلماؤهم أن يردوا أصل التشيع إلى عهد النبى ليجعلوا بذرته إسلامية خالصة ، وينفوا ما شاع عن مذهبهم من رده إلى أصول أجنبية ، ولذا فإن الحسين المظفرى بعد أن يَرُدُّ التَّشيع إلى النبى يكمل عبارته بقوله « وأما ما ذهب إليه بعض الكتاب من أن أصل مذهب التشيع من بدعة ابن سبأ المعروف بابن السوداء فهو وهم وقلة معرفة بحقيقة مذهبهم » .

ويرى الدكتور أحمد صبحى أن « التشيع فى الحقيقة قد مر بأربعة أدوار فهو فى دوره الأول جماعة التفوا حول « على » لأنهم أقرب شبهاً به فى إيمانه وسيرته فتجاوبوا معه وفضلوه على غيره ، ثم فى الدور الثانى جماعة لا تنقصها الكثرة ولكن يعوزها الإخلاص ... وذلك فى خلافة علي ، ثم مرت حالة سكون ... فى خلافة معاوية أعقبها اتجاه عقائدى وانشقاق تام عن التفكير الإسلامى العام بعد مقتل الحسين ثم كان التشيع فى دوره النهائى حيث برزت معالم المذهب وأصوله واتضحت أراؤه الكلامية على يد الصادق أو تلاميذه من المتكلمين وإذا كان التشيع فى أدواره الأربعة يحمل لفظاً واحداً يندرج تحته المؤمنون به من شيعة على وآل البيت ، فإن لكل دور خصائصه الذاتية التى تفرقه عما بعده ، بحيث يعتبر كل دور فيها نقطة تحول هامة فى المذهب ، فلا يمكن أن يشابه التشيع الأخير التشيع فى دوره الأول ، كما لا يمكن أن يكون عمار بن ياسر أو سلمان الفارسى

---

(١) محمد الحسين آل كاشف الغطاء : أصل الشيعة وأصولها ، مطبعة العرفان صيدا ١٣٣. هـ ، ص ١ - ٣

شبيهاً لهشام بن الحكم ، أو صاحب الطاق . فى الرأى والعقيدة ومن هنا اختلفت الآراء فى أصل التشيع وظهورة [1] .

مما سبق نخلص إلى أن التشيع فى جوهره هو مناصرة على بن أبى طالب وجعله إماماً للمسلمين ... ولكن هل توقف الأمر عند ذلك ... ؟ فى الحقيقة تطور مذهب التشيع بعد ذلك من رأى سياسى إلى عديد من المذاهب التى مزجت الدين بالسياسة وخاصة فيما يتعلق بمشكلة الإمامة - اختياره - الشروط الواجب تحققها فيه - صفاته ...... إلخ .

وسوف نقصر بحثنا على معالجة نظرية الإمامة عند الشيعة لدى الشيعة (الإمامية الإثنى عشرية) ولدى الإسماعيلية « الباطنية » باعتبارهما التيارين الممثلين بحق لكل اتجاهات الشيعة السياسية والعقائدية فى المجتمع الإسلامى .

أما فيما يختص بالتصوف ، فقد رسم نسقاً سياسياً متكاملاً لفكرة القطب أو الولى فى مقابل فكرة الإمام عند الشيعة ، وذلك من حيث كون التصوف فى جوهره محاولة جمعية للنظر إلى المجتمع على أساس ما ينبغى أن يكون عليه ولقد تمثلت هذه النظرية فى رفضهم للواقع الاجتماعى فى عصرهم ، وانتقاداتهم اللاذعة التى وجهوها لهذا الواقع ، والتى بلغت ذروتها بانعزالهم عنه ومحاولتهم تحديد معالم جديدة لمجتمعهم الذى يعيشون فيه .

والتصوف فى الإسلام ... لم ينشأ بصورته الواضحة إلا منذ بداية القرن الثالث الهجرى أما المرحلة التى مهدت له فقد تمثلت فى الزهد الذى انتشر فى القرنين الأول والثانى ... فإذا نظرنا إلى التصوف نظرة تاريخية

---

(١) دكتور / أحمد صبحى : نظرية الإمامة ، ص ٥٢

وإلى الأدوار المختلفة التى مر بها وجدناه فى كل هذه الأدوار ثورة اجتماعية وروحية واحدة متصلة ، يختلف شكلها باختلاف موضعها واتجاهها فقد اتجهت ضد العالم فى كل عصر من عصور التصوف ، وفى عصر الزهد الأول بوجه خاص اتجهت ضد رجال الدين من فقهاء ومتكلمين بمجرد أن دخل التصوف فى دور نضجه ابتداء من القرن الثالث ، ثم اتجهت ضد الفلسفة التقليدية ... بعد ذلك .

غير أن هذا الحال لم يدم طويلاً .. فقد بدأ بعض المسلمين ينظرون إلى كمال دينى آخر غير هذا الكمال الذى هو استنباط الأحكام الشرعية والعمل بمقتضاها . وذلك الكمال الدينى الآخر هو البحث فى المعانى الباطنية للأحكام ، بالإضافة إلى معانيها الظاهرة . وكان هذا إيذاناً بنشأة علم باطن الشريعة إلى جانب علم الظاهر [١] .

ولقد تضاربت الأقوال فى نشأة التصوف الإسلامى . فمن قائل أن التصوف فى صحيحه حركة بعيدة عن « روح الإسلام » أتت إلى المسلمين من الفرس أو من الهند عن طريق الفرس وكانت بمثابة رد فعل للعقلية الآرية ضد دين فرضه الغزاة المسلمين على أهل فارس فرضاً ... ومن قائل أن هذه الحركة استمدت أصولها من الرهبنة المسيحية ... التى وصلت إلى المسلمين ... وهى تحمل فى ثناياها أفكار الأفلاطونية المحدثة والأفكار الغنوصية والروائية والهرمسية التى كانت منتشرة فى مصر والشام إبان الفتح الإسلامى . ومن قائل أن التصوف فى أدواره الأولى إسلامى بحت ، يمكن الرجوع به إلى تعاليم الإسلام نفسه .

ومهما يكن من أمر فإن التصوف ككل حركة دينية انقلابية ، استمد عناصره ، ونشأ وتطور فى ظل التطورات العقلية الشاملة التى مر بها

---

(١) د . أبو العلا عفيفى : التصوف الثورة الروحية فى الإسلام ، طبع القاهرة ١٩٦٣ ص ١١٢

تاريخ المسلمين فى القرون الثلاثة الأولى ، وكان نتيجة مباشرة لها . فمن العبث محاولة إرجاع مثل هذه الحركات إلى أصل واحد ومصدر واحد بعينه [1] .

وما يعنينا فى هذا الكتاب ... أن نلقى الضوء على ... الأصول السياسية المتعلقة بفكرة الخلافة ... أو الإمامة بين الشيعة والمتصوفة على اعتبار أن هذه الأصول شكلت وشيجة مشتركة على صعيد النظر والتطبيق بين كلا الفريقين .

* * *

(١) نيكلسون : التصوف الاسلامى وتاريخه ، ترجمة . أبو العلا عفيفى طبع القاهرة بدون تاريخ ص ١٧ .

الفصل الأول

أثر الغلو فى عقائد الإمامية والاسماعيلية الباطنية فى الإمامة

يعرف الشهرستانى الغلاة بأنهم هم الذين غلوا فى حق أئمتهم حتى أخرجوهم من حدود الخليقة وحكموا فيهم بأحكام الإلهية ، فربما شبهوا واجداً من الأئمة بالألة ، وربما شبهوا الإله بالخلق ، وهم على طرفى الغلو والتقصير ، ثم يبين مصدر هذا الغلو ، فيقول : « وإنما نشأت تشبيهاتهم من مذاهب الحلولية ومذاهب التناسخية ، ومذاهب اليهود والنصارى ، إذ اليهود شبهت الخالق بخلق ، والنصارى شبهت الخلق بالخالق ، فسرت هذه المشبهات فى أذهان الشيعة الغلاة حتى حكمت بأحكام الإلهية فى حق بعض الأئمة وكان التشبيه بالأصل والوضع فى الشيعة ، وإنما عادت إلى بعض أهل السنة بعد ذلك ، ثم يحدد الشهرستانى بدع الغلاة فيرى أنها محصورة فى أربع ، التشبيه والبراء والرجعة والتناسخ [١] . ثم يرجع الشهرستانى هؤلاء الغلاة إلى الفرق الآتية : الخرمية ، والكودية بأصفهان، والمزوكية ، والسنادية بالرى ، والدقولية أو المحمرة بأزربيجان ، والمبيضة بما وراء النهر . بل إنه فى نص آخر يرى أن الغلاة على أصنافها كلهم متفقون على التناسخ والحلول ، ويرى أن مصدر التناسخ ليس فقط المجوس المزدكية ، بل إن الغلاة تلقوها أيضاً من براهمة الهند ، والفلاسفة الصائبية ، وأن مذهبهم أن الله قائم بكل مكان ، ناطق بكل لسان ، ظاهر بكل شخص

---

(١) الشهرستانى . الملل والنحل ، جـ ١ ص ٢٨٨/٢٨٩

من أشخاص البشر ، وهذا مذهب وحدة الوجود ، يخلطه الشهرستانى بمذهب الحلول ولكنه يستدرك فيقول : وقد يكون الحلول بجزء هو كإشراق الشمس فى كوة كإشراقها على البلور وأما الحلول بالكل فهو كظهور ملك بشخص ، أو كشيطان بحيوان ، ومراتب التناسخ أربعة ، النسخ والنسخ والرسخ ، وأعلى المراتب الملكية أو النبوة ، وأسفل المراتب الشيطانية أو الجنية .(١)

والحقيقة أن الشهرستانى قد تنبه إلى الجوانب المتعددة الغنوصية والفلسفية للغلو ووضحها وضوحاً أقرب إلى الحقيقة . .

وكانت أول العقائد المغالية قد ظهرت على يد عبد الله بن سبأ الملقب بابن السوداء فيذهب سعد بن عبد الله أبو خلف الأشعرى القمى (المتوفى سنة ٣٠١ هـ) إلى أن أول من قال بالغلو فى على (هو عبد الله بن سبأ) ويذكر أن اسمه عبد الله بن وهب الراسمى الهمدانى ، وأن مما ساعده على نشر آرائه ، عبد الله بن حرس وابن أسود ، وأن هذين الآخرين كانا من جلة أصحابه ، ويذكر أبو خلف أن ابن سبأ كان أول من أظهر الطعن على أبى بكر وعمر وعثمان والصحابة وأعلن التبرأ منهم ، وأن الإمام علياً نفسه أمره بهذا ، وأن التقية لا تجوز ولا تحل ، ولما بلغ الأمر علياً استدعى ابن سبأ وسأله فأقر فأمر علىّ بقتله ، فاجتمع الناس من كل ناحية وصاحوا ، يا أمير المؤمنين أتقتل رجلا يدعو إلى حبكم أهل ابيت ، وإلى ولايتك والبراءة من أعدائك فسيره علىّ إلى المدائن ، ويذكر أبو خلف القمى نصاً آخر أن عبد الله بن سبأ كان يهودياً فأسلم ووالى علياً ، وأنه كان يقول فى يهوديته ، أن يوشع بن نون وصى موسى ، فقال فى إسلامه بعد وفاة (الرسول) فى علىّ بمثل ذلك المقالة ، وهو أول من شهد بالقول بفرض إمامة

---

(١) الشهرستانى ص ٢٨٩

عليّ ، وأظهر البراءة من أعدائه ، وكاشف مخالفيه وكفرهم ، ويرى ابن خلف أن من خالف الشيعة استنتجوا من هذا أنه الرفض ، ويبدو أن الرفض هنا بمعنى رفض الشيخين - مأخوذ من اليهودية (١) .

ثم أعلن ابن سبأ الوصية عليّ وذهب أتباعه إلى عليّ فى الكوفة . وقالوا له أنت أنت - فلما سألهم جلية الأمر ، قالوا له أنت الله ، فأوقد عليّ ناراً لهم ودعا مولاه قنبرا واستتابهم ، فلم يتوبوا ، فأمر بإلقائهم فى النار وكانوا يصيحون :

لما رأيت الأمر أمراً منكرا أججت ناراً ودعوت قنبرا (٢)

ومن آرائهم معراج على الروحى - أو الصعود إلى السماء ، يقول البغدادى : لما قتل عليّ زعم ابن سبأ ، أن المقتول لم يكن علياً ، وإنما كان شيطاناً تصور للناس فى صورة عليّ ، وأن علياً صعد إلى السماء ، كما صعد عيسى ، كذلك كذبت النواصب والخوارج فى دعواها قتل على ، وإنما رأت اليهود والنصارى شخصاً مصلوباً شبهوه بعيسى ، كذلك القائلون بقتل عليّ رأوا قتيلاً يشبه علياً ، فظنوا أنه عليّ ، وعليّ قد صعد فى السماء ، وأنه سينزل إلى الدنيا وينتقم من أعدائه (٣) .

ويذكر أبو خلف ألقمى أنه حين اتصل خبر موته بعبد الله بن سبأ وجماعته فى المدائن ، قالوا لمن أخبرهم بوفاته ، كذبت يا عدو الله ، لو جئتمونا بدماغه فى سبعين صرة فأقمت على قتله سبعين عدلاً ما صدقناك ، ولعلمنا

---

(١) الأشعرى . المقالات والفرق ، ص ٢٠ .

(٢) الملطى . التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع ، استانبول ١٩٣٦ م ، ص ٢٥ .

(٣) البغدادى . الفرق بن الفرق القاهرة ١٣٢٨ هـ ، ص ١٤٣ .

أنه لم يمت ولم يقتل ، وإنه لايموت حتى يسوق العرب بعصاه ، ويملك الأرض [(١)] .

ثم ذهبوا إلى الكوفة واستأذنوا فى الدخول عليه ، فقال لهم أولاده وأهله : سبحان الله هل علمتم أن أمير المؤمنين قد استشهد ؟! قالوا : إنا لنعلم أنه لم يقتل ولايموت ، حتى يسوق العرب بسيفه وسوطه ، كما قادهم بحجته وبرهانه ، وأنه ليسمع النجوى ، ويعرف ما تحت الديار العتل ، أو يلمع فى الظلام ، كما يلمع السيف الصقيل الحسام ، ويعلق القمى قائلاً بأن هذا مذهب السبأية ، ومذهب أصحاب عبد الله بن عمر بن حرب الكندى فى علىّ ثم قالوا ، بعد ذلك فى على أنه إله العالمين ، وأنه توارى عن خلقه سخطاً منه عليهم وسيظهر . ويرى البعض منهم أن علياً فى السحاب وأن الرعد صوته ، والبرق سوطه ، وإذا سمعوا صوت الرعد ، أو رأوا السحاب يقولون السلام عليك يا أمير المؤمنين ، ويبدو أن هنا أول بذور لأفكار التوقف والغيبة والرجعة ، والقول بتناسخ الجزء الإلهى فى الأئمة بعد علىّ [(٢)] .

هكذا بدأت عقائد الغلو فى التشيع ، تلك العقائد التى كان لها أكبر الأثر فى تكوين نسق الإمامة على نحو ما سنعرض له لدى الشيعة الإثنى عشرية والإسماعيلية الباطنية ... لقد نادى ابن سبأ بألوهية علىّ ، ومعنى هذا أنه ينزههُ عن الخطأ ، لتتطور تلك الفكرة بعد ذلك فى القول بعصمة الإمام ، وهناك جانب آخر فى فكرة التألية وهو ما ينسب إلى علىّ من علم لدنى ، ثم يجعله الشيعة فيما بعد علماً يتوارثه أئمتهم ، أن هذه الفكرة يتجلى فيها الغنوص واضحاً .... وأن فى قوله بعودة علىّ إلى الأرض

---

(١) أبو خلف القمى . المقالات ص ٢١/٢٠ . النوبختى : فرق الشيعة ، نشر ريتر ليبزج ١٩٣١م

(٢) الشهرستانى . الملل والنحل ، جـ ١ ص ٢٩١ / ٢٩٣

ثانية لينتقم من أعدائه ، نزعة يهودية ومسيحية اعتنقها الإثنى عشرية فيما بعد ، وأصبغوها على إمامهم الثانى عشر محمد بن الحسن العسكرى .

لقد كان هناك خط آخر أتخذه الغلاة من أتباع ابن على محمد بن الحنفية وغالوا فيه كما غالى سابقوه فى أبيه .

فنجد أنه من الواضح بعد فشل حركة المختارية والكيسانية ، أن الموالى عادوا يعيشون تحت سياط بنى أمية ، وكان المختار قد سوى بينهم وبين العرب ، كما أنهم أيضاً آمنوا بأحقية آل البيت فى الإمامة ، وأصبحت لهم فى عنق محمد بن الحنفية بيعة لم يتخلوا عنها على الإطلاق ، وبقوا على ولائهم له حتى بعد خيانته لهم ، ومبايعته لعبد الملك لدفع التكاليف والتحلل من أوامر الشريعة ونواهيها (١) .

ثم أننا نرى - أيضاً - أول ظهور لفكرة الإمام الناطق والإمام الصامت ، تلك الفكرة التى ستلعب دوراً هاماً لدى الغلاة ، كما ستؤثر أثراً نفاذاً لدى الإسماعيلية (٢) ..

لقد كانت عقيدة الرجعة ، فيما يبدو - تنتشر إذن فى الكوفة وفى المدينة وقد أخذت تتطور فى صورة أسطورية لدى طائفة - الكربية - اتباع أبى كرب الضرير ، وقد ذهب إلى إن ابن محمد بن الحنفية حى ولم يمت ، وأنه فى جبل رضوى ، وعنده عين من ماء وعين من عسل ، يأخذ منهما رزقه ، وعن يمينه أسد وعن يساره نمر ، يحفظانه من أعدائه إلى وقت خروجه ، وهو الإمام المنتظر (٣) .

---

(١) أبو خلف القمى - كتاب المقالات ، ص ٢٣/٢٢

(٢) د . على سامى النشار . نشأة الفكر ، جـ ٢ ص ٧٨

(٣) البغدادى . الفرق ص ٢٧

أما الطائفة الثانية فهى الحربية - أتباع عبد الله بن عمر بن حرب الكندى ، وكان عبد الله من قبيلة كنده الغالية ، وكان أول أمره هاشمياً ، ثم قال أن الوصية خرجت من أبى هاشم إليه ، فهو الإمام ، غير أن أقدم مصدر شيعى يحدثنا بأن ابن حرب هو أول من نادى بأن الأئمة الأربعة أسباط بهم يسقىٰ الخلق الغيث . ويقاتل العدو ، ويظهر الحجة ، وتموت الضلالة ، من تبعهم لحق ، ومن تأخر عنهم محق وإليهم المرجع ، وهم كسفينة نوح من دخلها صدق ونجا ، ومن تأخر عنها غرق وهوى ، وتستند الحربية فى هذا على خطة علىّ ، عند زوال التقية عنده فى أول خطبة خطبها ، أى جمع حينما بويع للخلافة ، فنطق للمسلمين بحقيقة أهل البيت، فقال ألا أن وأطايب أرومتى أحلم الناس صغاراً وأعلمهم كباراً ، ألا وأن أهل البيت من علم الله علمنا ، ومن قول الله سمعنا ، أن تتبعو أثرنا ، تهتدوا ببصائرنا ، وأن تدبروا عنا يهلكهم الله بأيدينا ، معنا راية الحق من تبعها لحق ، ومن تأخر عنها محق ، ألا وبنا تدرك ترة كل مؤمن ، وبنا يخلع الله ربقة الغل من أعناقكم ، ألا بنا تفتح وبنا تختم هؤلاء هم الأسباط الأربعة ، عشرة أهل البيت ، سبط إيمان وأمن وهو علىّ ، وسبط هو سبط فوز وتسنيم وهو الحسن ، وسبط ، هو سبط حجة ومصيبة وهو الحسين ، وسبط أخير « هو الذى يبلغ الأسباب ، ويركب السحاب ويزكى الرياح ، وينفخ المد ، ويسد باب الروم ، ويقيم أود الحكم ، ويبلغ الأرض السابعة ، ويقرب منه الحق ، وينأى عن الجور ، وهو الإمام المنتظر محمد ابن على بن الحنفية . هكذا أحب هؤلاء الكريبية والحربية محمد بن الحنفية، فلما لم يتحقق لهم شيئ من آمالهم فيه فى حياته ومات عياناً ، لم يصدقوا بموته ، وقالوا أنه لم يمت ، فوضع مثله فى مضجعه وهاجر ،

وهكذا فعل محمد بن الحنفية ، هاجر إلى الله ، فغيبته فى جبل رضوى بين أسدين ونمرين تؤنسه الملائكة ويحرسه النمران [1] .

ويرى الأستاذ الدكتور النشار - رحمه الله - أن قصة الأسباط الأربعة قد ذكرت فى القرآن ، ولكن اقتباسها وتطبيقها على الأربعة من أهل البيت يسترعى النظر فى أوساط الكوفة ، ومن قبل نادى بمهديه علىّ السبئية فى المدائن ، فالمدعَ يهودى بحت ، وأرادوا ادخال تطبيق فكرة يهودية فى المجتمع الإسلامى المستعر الفتن لتزيد النار اشتعالاً [2] .

يُلاحظ أن كعب الأحبار ، تلك الشخصية اليهودية الغريبة فى العصور الأولى من الإسلام ، هى التى أخبرت بمهديه ابن الحنفية ، اختفاؤه أو غيبته ، ثم رجعته عبد الله بن سبأ والسباية فى الأسباط - كعب الأحبار ، لا جرم بعد ذلك أن يعلن أهل السنة ، أن منشأ الرفض يهودى [3] .

ويرى ابن خلدون أيضاً أن مصدر فكرة الواقفية ، هم اتباع أبى هاشم بن محمد الحنفية والواقفية عنده هم القائلون بإمامة واحد بعينه ، والقول بحياته الخالدة فهو حى ولا يموت ، ولكنه غائب عن أعين الناس ، ويستشهد الواقفية على هذا بقصة الخضر ، وهو الشخصية القرآنية التى أعلن المسلمون خلوده ، وأن الله أظهره لموسى ليعلمه معنى الظاهر والباطن « وما فعلته عن أمرى » ثم ليفسر له الفرق بين عالم الغيب وعالم الشهادة [4] .

ويفسر الكيسانية التين والزيتون وطور سنين وهذا البلد الأمين ، بأنها

---

(١) أبو خلف القمى . المقالات والفرق ص ٢٨/١٧ .

(٢) د . على سامى النشار . نشأة الفكر ص ٨١ .

(٣) د . على سامى النشار . نشأة الفكر ص ٨١

(٤) ابن خلدون مقدمة : ص ٥٣١ - ٥٣١

رموز وكنايات على الأئمة الأربعة ، فالتين عليّ ، والزيتون الحسن ، وطور سنين الحسين ، وهذا البلد الأمين محمد بن الحنفية ، لأنه آخرهم فى الوصية وأنه المهدى المنتظر يخرج من البلد الأمين ، فى عدد أهل بدر ، فيقتل الجبابرة ويهدم دمشق ، بلد الأمويين ويكون معه الراياسات الأسود ، فإذا خرج من الغار تقدمه الأسد وتأخر النمران ، والملائكة على يمينه وشيعته على يساره [١] .

ومن الملاحظ أن هذا النوع من التفسير لآيات القرآن ، قد استغل فيما بعد وتطور فى عقائد الإسماعيلية الباطنية على صوره منهج تأويلى متكامل أقاموا عليه مذهبهم ، فهم يذكرون أن لظاهر آيات القرآن باطناً ، كما أن لكل تنزيل تأويلاً كما نلاحظ فكرة الرجعة قوية صارخة لدى القرامطة فيما بعد حيث تأثروا بسابقيهم من غلاة الكيسانية .

ولقد تعددت الفرق المغالية وكانت كلها تدر حول مجموعة ثابتة من العقائد وأيا كانت الفرقة التى أعتنقت هذه العقائد أو تجمعها حول إمام لها من أهل البيت أو ممن كانوا من المقربين إليه ، فإن هذه العقائد لم تعد أكثر من أفكار اعتنقها القليلون حيث قضى عليهم الشيعة أنفسهم من آل البيت ، وعلى الرغم من تعدد هذه العقائد من تأليه للأئمة وادعاء رجعتهم أو غيرها ، فإنها تدور حول فكرة واحدة ذات شقين ، وهى قداسة أهل البيت أولاً ومن والاهم ثانياً .

* * *

(١) د . على سامى النشار . نشأة الفكر الفلسفى ص ٨٤

الفصل الثانى

الإمامة عند الشيعة « الإثنى عشرية »

تميزت الشيعة « الإثنى عشرية » بأنها وضعت لنفسها فى بادىء الأمر عدداً ثابتاً من الأئمة على اعتبار أنهم كانوا يهتمون بإسباغ الصفات الروحية على إمامهم أكثر من الصفات السياسية ، فلم يقم أئمتهم بمحاولات جادة لانتزاع - الحكم من العباسيين كما كان يفعل الإسماعيلية الباطنية ، ولكن كان بعضهم يتودد فى بعض الأحيان للخلفاء العباسيين مثل الإمام على الرضا الذى كان قريباً من المأمون بالرغم من ذلك كانت عقائدهم متناسقة فى نظرية الإمامة بين الأمور الدينية والأمور الدنيوية كما اعتادت أن تفعل ذلك مختلف فرق الشيعة الإمامية .

ويرى آل كاشف الغطاء ... أن الشيعة الإمامية اعتبرت الإمامة منصب إلهى كالنبوة ، فكما أن الله سبحانه يختار من يشاء من عباده للنبوة والرسالة ويؤيده بالمعجزة فكذلك يختار للإمامة من يشاء ويأمر نبيه بالنص عليه ، وأن ينصبه إماماً للناس من بعده للقيام بالوظائف التى كان على النبى أن يقوم بها غير أن الإمام لا يوحى إليه كالنبى ، وإنما يتلقى الأحكام منه مع تسديد إلهى ، فالنبى مبلغ عن الله ، والإمام مبلغ عن النبى والإمامة متسلسلة فى إثنى عشر إماماً كل سابق ينص على اللاحق ويشترطون أن يكون معصوماً كالنبى عن الخطأ والخطيئة ولا زالت الثقة به .

فلزوم العصمة للإمام أمر ضرورى وأن يكون أفضل أهل زمانه فى كل فضيلة وأعلمهم بكل علم ، لأن الغرض منه تزكية النفوس وتهذيبها بالعلم والعمل الصالح ... فالإمام فى الكمالات دون النبى وفوق البشر [1]

---

(١) راجع : آل كاشف الغطاء ص ٩٦ - ٩٧

هكذا نلاحظ أن الشيعة الإثنى عشرية هى أول فرقة ظهرت تحاول وضع نظرية اجتماعية فى الإسلام والهدف منها إصلاح حياة الناس وإسعادهم وهذا لا يتم فى رأيهم إلا بوجوب تنصيب إمام عادل معصوم عالم .. شجاع ... يتحمل مسئولية توجيه المجتمع إلى ما فيه خيرهم .

ولقد برروا ذلك الأمر باستدلالات عقلية ونقلية وتاريخية حاولوا بها استغلال الدين وما له من عميق الأثر فى خدمة أغراضهم السياسية .

على أنه يجب ألا نفهم موقفهم الثيوقراطى (الإلهى) فى نظرية الإمامة مرادفاً أو مشابهاً لنظرية التفويض الإلهى للملوك والحكام لأن هذه النظرية كانت نتيجة للأمر الواقع ، وللظروف والأوضاع التى كانت سائدة فى أوروبا فى العصور الوسطى [١] ...

أما النظرية الشيعية ... فتتجرد عن ذلك فتجعل نصب الإمام يتحقق به عز الدنيا وسعادة المؤمنين ولا وجه شبه بين النظريتين إلا فى إسنادها إلى التقليد الدينى الذى كان يسود الفكر السياسى طوال الأزمنة القديمة والعصور الوسطى [٢] .

أولاً : الأدلة النقلية والعقلية على تنصيب الإمام :

أ - ومن الأدلة النقلية التى ساقها الشيعة الإمامية على تنصيب الإمام :

١ - قوله تعالى ﴿ وربك يخلق ما يشاء ، ويختار ما كان لهم الخيرة ﴾ (القصص/٦٨) ولقد فسرت هذه الآية بأن الخيرة هم الذين يختارهم الله ، والمقصود بهم الأنبياء والأئمة .

---

(١) Figgs I. N, : The Divine Rights Of The Kings London 1 9 56 P . 6 .

(٢) د . أحمد صبحى : نظرية الإمامة ص ٧٩

٢ - يستدلون بالآية الكريمة ﴿ يقولون هل لنا من الأمر من شىء قل إن الأمر كله لله ﴾ (آل عمران : ١٥٤) ويستدل الحلى بهذه الآية على أن أمر الإمام كله لله فلا أمر له من تلقاء نفسه أو من سوانح خواطره ولا يتوافر ذلك إلا إذا كان الإمام منصباً من الله من جهة ومعصوماً من جهة أخرى ، وكذلك أمر المحكومين لله بمقتضى الآية .. فلو كان تنصيب الأمام من فعلهم لكانت جميع الأوامر والنواهى الصادرة منه من فعلهم مما يتنافى مع مفهوم الآية [١] ....

٣ - ومن الآيات الدالة على الإمامة بصفة مباشرة قوله تعالى لإبراهيم عليه السلام : ﴿ إنى جاعلك للناس إماما ، قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين ﴾ (البقرة : ١٢٤) - فالإمامة بمقتضى الآية عندهم من عهود الله التى لا يتطرق اختيار الناس إليها مطلقاً أما إنها من عهد الله فلقوله تعالى : ﴿ لا ينال عهدى ﴾ وأما إنها من اختياره فلقوله تعالى : ﴿ جاعلك للناس إماماً ﴾ .

٤ - ويستدلون أيضاً بقوله تعالى ﴿ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات ﴾ (الأنبياء : ٧٣) فالله أوحى إليهم فعل الخير وجعلهم أئمة للناس لهدايتهم ﴿ الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ﴾ (الحج : ٤١)

ويلاحظ فى هذه الأدلة أنهم استغلوا بعض الآيات فحملوها من المعانى والتفسيرات ما ليس لها واضعين بذلك السند الدينى الأول لإمامهم حتى يتمكن من أن يسوس الناس بسلطة مطلقة .. لا يدانيه أحد فيها وحتى تكون كل تصرفاته وأفعاله مرضية للناس مهما كانت كيفيتها .

---

(١) الحلى « جمال الدين يوسف بن المطهر » الألفين الفارق بين الصدق والمين فى إمامة على (النجف ١٣٦٠ هـ) ص ١٠٥

ولم يكتفوا بوضع الأدلة النقلية على تنصب الإمام بل قدموا من الأدلة والبراهين العقلية ما **يوجب تنصيبه ومن بين تلك الأدلة العقلية:**

١ - إذا كان الله قد أوجب على النبيين من لدن آدم إلى خاتم الأنبياء أن يعينوا قبل رحيلهم من العالم خليفة لهم ، وكان من سنة رسول الله إذا خرج من غزوة أن يعين من يقوم مكانة الشريف فى المدينة ، ولم يترك ذلك إلى اختيار الرعية ، بل كان ينتظر فى ذلك أمراً من الله ، فكيف يترك تعيين الإمام مع ماله من علاقة وثيقة بالشرائع والأحكام لأهل الإسلام كافة إلى يوم القيامة ، وكيف يتركه إلى اختيار الناس [١] ...

٢ - ثم كيف يوجب الله الوصية ويحث عليها رسول الله بقوله « من مات بغير وصية مات ميتة جاهلية » ، ثم ينسب إلى النبى أن أغفلها ، يجوز أن ينسب إلى الرسول تمسكه بهذا الواجب المجمع عليه .... ولا يقال أن الوصية متعلقة بالأمور الدنيوية لأن الوصية فى الدين أعظم ومن رسول الله - الذى يحتل أعلى المناصب وأرفعها شأناً - أوجب ، ولو كانت الوصية خاصة بالأمور الدنيوية لما ذكر الله تعالى فى كتابه وصية إبراهيم - وكذلك يعقوب إذ قال تعالى : ﴿ ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب ﴾ [٢] .. وكيف تجب الوصية فى أمور الدنيا ولا تجب فى أمور الدين مع أن الدنيا منوطة بها [٣] ....

٣ - كما دل النص القرآنى على وجوب طاعة الإمام إذ يقول تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ﴾ [٤]

---

(١) محمد حسن المظفرى : الشيعة الإمامة ، مطبعة الزهراء ، النجف ، ١٣٥٢ هـ ، ص ١٦٧.

(٢) البقرة : ١٣٢

(٣) الحلى /الألفين ص ٤١

(٤) النساء : ٥٩

وتدل هذه الآية على بطلان اختيار الأمة للأئمة ، إذ قرن الله طاعتهم بطاعته وطاعة رسوله فوحدة السياق وتساوى المتعاطفات فى الحكم يقضى بألا ينطق أولو الأمر عن الهوى حتى تجب طاعتهم ، إذ لو ارتكبوا المعصية أو أمروا بها لوقع التضارب بين وجوب طاعتهم وبين وجوب طاعة الله ورسوله من ناحية وكذلك بين وجوب طاعتهم وبين وجوب زجرهم عملاً بأمره تعالى فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والإمام إذن وجب أن يكون معصوماً منصوصاً عليه من الله [١] ...

٤ - إن نصب الإمام بالاختيار فإن ذلك ينافى القصد والحكمة من ذلك لاختلاف الأهواء ، وتضارب الأراء ، وتعالى الشهوات ، وتغاير المرادات بحيث يعتبر اتفاق الكل على واحد عسير بل متعذراً إن لم يكن ممتنعاً ، فإن أدى الاختيار إلى إثارة الفتن وغلبة الشر .. وسفك الدماء وخلاف العباد ، فقد انتفت الحكمة من تنصيب الإمام ، لابد إذن من حاكم زاجر وسلطان قاهر تذل له النفوس ، وتقمع الشرور ، ويحول دون انغماس الناس فى بحور الضلال منصباً من الله حجه لله على عباده وهاديا لهم فى غير إلجام أو مساس بقدرتهم على الفعل وحرية الاختيار [٢] ...

٥ - إن منصب الإمامة نظير منصب النبوة فى أن لكل منهما الرياسة العامة على المكلفين فى جميع الأمور فى الدنيا والدين والناس غير قادرين على اختيار من يليق بهذا المركز الخطير ، ولو افترضنا جدلاً إمكان الإتفاق مع استحالة ذلك فإنه لا يتم إلا على قدره إمامهم المحدودة وأعراضهم الباطلة ولن يكون ذلك موافقاً للمصلحة العامة والحكمة الإلهية إذ سيختار كل حين مصالحه الشخصية ولن يتم الأمر إلا بالقهر والغلبة وهذه

---

(١) القزوينى (محمد الكاظمى) المناظرات - مطبعة العرفان بصيدا سنة ١٣٧٤ هـ ص ٥ ، ٦ .

(٢) محمد حسين المظفرى - الشيعة والإمامة ، ص ١٦٧ وما بعدها .

سلطة الجبابرة وليست إمامه أو إمارة شرعية ، ولو كان بإمكان الرعية أن يختار الإمام لأمكنها اختيار النبى أيضاً ... وهذا باطل بالإجماع ... [1]

٦ - ومن البداهة أن من لا يقدر على أسهل الأشياء لا يكون قادراً على أعظمها فإذا لم تقدر الأمة على تعيين المناصب النازلة كالقضاء فكيف تصبح قادرة على تولية أعظم المناصب وأخطرها وهى الإمامة [2] ..

٧ - ولو افترضنا جدلاً ... (أن الأمة توجهت منزهة عن كل غرض وهوى النفس لاختيار الإمام فإن الخطأ إذا كان جائزاً على كل فرد فقد جاز الخطأ على المجموع وبذلك تخطىء الأمة المستحق ، وتختار غيره ، ولا يتضح لهم الأمر إلا بعد أن يتعذر خلعه إلا بإثارة الفتن وإراقة الدماء حتى اضطر كثير من الفقهاء وأهل الحديث إلى القول بالصبر على أمراء الجور[3] ...

٨ - ولو جاز الخطأ على الإمام ويحدث هذا إذا لم يكن تعيينه من الله سبحانه وتعالى فإننا إذا اقتدينا به لأن الله أمرنا بذلك ، لثبت أن الله أمرنا بإقتراف الذنب والمعصية وإن لم نقتدى به ، خرج الإمامُ عن كونه إماماً ، ولو جاز عليه الخطأ لوجب منعه امتثالاً لما طلبه الله من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فيترتب على هذا أن الإمام الذى نصب لمنع المنكر قد سعى إليه ، وهذا تناقض فضلاً عن أنه يتعذر عادة منه للرهبة والخوف من بطشه ، ولو طُلبَ منْ الناس تأديب إمامهم مع أنه أمم لتأديبهم لا لزم الدور فوجَب أن يكوَن الإمام معصوماً ، ولما كانت العصمة معلومة لله فقط ... وجب أن يكون تنصيبه من الله [4] ... ولا يجوز على الله أن يترك النص على الإمام ويفوضه إلى غيره ، لأن ذلك ترجيح مرجوح ، وصدور ذلك عن القادر الحكيم قبيح ومحال .

---

(١) الحلى الألفين ص ٣

(٢) الرازى (فخر الدين) نهاية العقول فى دراية الأصول مخطوط بدار الكتب (مجلدان) تحت رقم ٧٤٨

(٣) دونالدن : عقيدة الشيعة ، طبع مطبعة السعادة ، القاهرة ، سنة ١٩٤٦ ، ص ٤١٣

(٤) الحلى : الألفين ص . ٢ وما بعدها .

هذه هى بعض الأدلة العقلية التى وضعتها الشيعة الإثنى عشرية لنقد مبدأ اختيار الناس للإمام والنص على وجوب تنصيبه من الله ونتبين من هذه البراهين إنها استخدمت أسلوب النقل والعقل معاً فى وجوب تنصيب الإمام على الله تعالى .

● ثانياً - الإمام وصفاته :

يبدأ الشيعة الإثنى عشرية بعد ذلك فى رسم صورة الإمام فى قولهم بتسلسل الإمامة فى أبناء على بن أبى طالب باستثناء الحسن بن على الذى تولى الإمامة ، ثم تولاها شقيقة الحسين من بعده ، ثم سارت الإمامة فى ذريته جتى الإمام الثانى عشر ، وهو محمد بن الحسن العسكرى (المهدى المنتظر) .

أولاً : علم الإمام :

الإمام عند الشيعة الإثنى عشرية هو مصدر التشريع بعد القرآن والسنة المؤكدة عن طريق أهل البيت ، فلا يقبل الشيعة اسناداً إلا عن طريقهم ، فالإمام وارث العلم النبوى ، وإنما يعلو على البشر باتصاله الدائم بالعلم الإلهى (١) .

ومن هنا يلاحظ أنهم يرفضون فكرتى القياس والإجماع اللتين يأخذ بهما جمهرة أهل السنة بعد القرآن والحديث كمصادر للتشريع ، وفى هذا جانب يوتوبى تتضح معالمه فى وصف الشيعة الإثنى عشرية لإمامهم ، بأن لديه علم النبى الذى يرثه الإمام ، والإمام الذى يسمو على البشر بصلته بعلم الله سبحانه وتعالى .

ولكن كيف ورث الأئمة علوم الأنبياء وتراثهم ؟ يبدو أن من خصائص التفكير العينى الإعتقاد بوحدة العالم لا تجزؤ موضوعاته على حد تعبير برتراند رسل (٢) . ذلك أن عصمة الإمام وهى مسألة فى أصلها سياسة بحتة اقتضت البحث فى ناحية ايستمولوجية تتعلق بمصدر علمه ووجه

---

(١) د . على سامى النشار : نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام ، ص ٢٩٥ .

(2) B . Ruussell : Mysticism and logic P . 4

اليقين فيه ، ثم اضطرهم وصف أئمتهم بوراثة تراث النبيين إلى أن يفسروا الأمر تفسيراً انطولوجياً يتعلق بخلقهم ووجودهم فحين أراد الله خلق الإنسان أنبأ ملائكته بذلك فقالوا : « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك » فأجابهم الله : « إنى أعلم ما لا تعلمون » ، وما يعلمه الله ولم تعلمه الملائكة آنذاك ، أن يخلق خلقاً ، ويجعل فيهم الأنبياء المرسلين والأئمة المهديين خلفاء على خلقه وحججه فى أرضه ينهون عن المعصية ، ويهدون إلى طاعته ، ويسلكون بالناس إلى سبيله ، فخلق محمداً والأئمة من المادة النورانية قبل أن يخلق آدم ، فكانت هذه المادة ترى فى وجه آدم ثم ورثها ابنه شيث ، كما أوحى الله إليه أنه خليفة وارث علمه فأوصى آدم إليه وسلمه الاسم الأعظم ، وجعل العلم والأسماء والوصية فى تابوت ودفعها إليه ثم جمع ولده أجمعين فأشهدهم وأمرهم أن يسمعوا له ويطيعوا فهو وصيه ، وخليفته ثم تسلسل النور الإلهى من شيث إلى ولده ، وهكذا توارث بنو آدم من ذرية شيث النور والعلم والوصية كل حجة على قومه ، لأن الله لا يخلى الأرض من إمام حتى آل الأمر إلى نوح أول أولى العزم من الرسل بعد آدم . فلما انقضت أيامه ورثها ابنه سام ثم تسلسل العلم فى أعقابه إلى هود ثم آل إبراهيم ، وهكذا ورث الأنبياء والأوصياء النور الإلهى حتى كان الأمر فى عبد المطلب فكان نور رسول الله كالغرة فى جبينه فكان به نصره على جيش أبرهة [1] .

هكذا يضع الشيعة فكرتهم عن كيفية انتقال العلم الإلهى إلى الإمام ، ويسندون إلى أمامهم السادس جعفر الصادق حديثاً نصه « ورب الكعبة لو كنت بين موسى والخضر ، لأخبرتهما أنى أعلم منهما ولأنبأتهما بما ليس

---

(١) د . أحمد صبحى محمود . نظرية الإمامة لدى الشيعة الإثنى عشرية ، ص . ١٥

فى أيديهما ، لأن موسى والخضر أعطيا علم ما كان ، ولم يعطيا علم ما يكون وما كان حتى تقوم الساعة ، وقد ورثناه من رسول الله وراثة [١] .

ولكن الإثنى عشرية قد واجهوا مشكلة تختص بإمامهم التاسع محمد الجواد بن على الرضا ، إذا مات أبوه وتركه فى الرابعة وبضعة أشهر ، وهذه المشكلة تكمن فى أن الإمام ينبغى أن يكون حاصلاً على العلم الإلهى ، ولكن هذا الإمام كان طفلاً ، فكيف حصل على علمه .

« أجابت فرقة من الإمامية بأن الله عز وجل علمه ذلك عند البلوغ » بضروب ، مما يدل جهات علم الإمام مثل الإلهام والنكت فى القلب ، والنقر فى الأذن ، والرؤيا الصادقة فى النوم ، والملك المحدث له ، ووجوه رفع المنار والعمود والمصباح ، وعرض الأعمال . أى لجأ هذا الفريق من الشيعة الإمامية إلى المغيبات ، يلتمسون فيها وفى تصورها إقامة علم الإمام ، بل ويذهبون إلى أن الأخبار الصحيحة القوية الأسانيد والتى لا يجوز دفعها ولا رد مثلها قد صحت فى الإمام محمد الجواد [٢] .

وطائفة ثانية لم توافق على أن علم الإمام من جهة الإلهام والنكت والملك . لأن الوصى منقطع بعد النبى ﷺ « والإلهام إنما هو أن يلحقك عند الخاطر والفكر معرفة بشئ قد كانت تقدمت معرفتك به من الأمور النافعة ، فذكرته ، وذلك لا يعلم به الأحكام وشرائع الدين على كثرة اختلافها وعللها قبل أن يوقف بالسمع منها على شئ ، لأن أصح الناس فكراً ، وأوضحهم خاطراً وعقلاً . وأحضرهم توفيقاً لو فكر وهو لا يسمع بأن الظهر أربع ، المغرب ثلاث ، والغداة ركعتان ، ما استخرج ذلك بفكره، ولا عرفه بنظره ، ولا أستدل عليه بكمال عقله ، ولا أدرك ذلك بحضور توفيقه ، ولا لحقه

---

(١) الطلينى ٥٦ - ٦٠ .

(٢) أبو خلف القمى : كتاب المقالات ص ٩٧ . والنوبختى : فرق الشيعة : ص ٨٩

علم ذلك من جهة التوفيق أبداً . ولا يعلم ذلك إلا بالتوقيت والتعليم ، فقد بطل أن يعلم شيئاً من ذلك بالإلهام والتوفيق . وهنا تنقطع الإمامة . ولكن هذه الطائفة من الإمامية ما تلبث أن تجد مخرجاً فتقول أن محمد الجواد هو « قبل البلوغ إمام على بمعنى أن الأمر له دون غيره إلى وقت البلوغ ، فإذا بلغ علم من كتب أبيه وما ورثه من العلم فيها ويجده فيها من الأصول والفروع . وذهبت هذه الفرقة إلى إجازة القياس فى الأحكام للإمام خاصة على الأصول التى فى يديه ولكونه معصوماً من الخطأ والذلل . فلا يخطىء فى القياس أبداً . وبهذا انتهت هذه الطائفة إلى احتضان فكرة القياس ، ونحن نعلم أن الشيعة الإثنى عشرية لا تجيزه اطلاقاً (١) .

أما الفرقة الأخيرة التى اختلفت فى علمه فقد أعطت الإمام القداسة العظمى التى تشيع فى فكرة الإمامية عامة ، وهو أن الإمام إمام بالغ أو غير بالغ ، لأنه حجة الله على الأرض ، وقد يجوز أن يعلم وإن كان صبياً ، ويجوز عليه الإلهام والنكت والرؤيا والملك المحدث ، فكل ذلك يجوز عليه ، كما جاز على سلفه الماضين ، حجج الله فى الأرض ، وقد حدث هذا ليحيى بن زكريا من قبل ، واتاه الله الحكم صبياً ، وعيسى ابن مريم وغيرهما من الحجج (٢) .

من ذلك يتضح أن الإثنى عشرية مهما اختلفت فى كيفية حصول الإمام على علمه ، إلا أنهم يتفقون على أن هذا العلم يشتمل على :

١ - الصحيفة .

٢ - مصحف فاطمة .

٣ - الجامعة أو الجفر الجامع .

٤ - الجفر الأبيض ، والجفر الأحمر .

---

(١) د . على سامى النشار . نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام ، جـ ٢ / ص ٢٨١ .

(٢) المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٧٤ .

١ - الصحيفة :

طولها سبعون ذراعاً بذراع رسول الله وإملائه ، وخط عليّ فيها كل حلال وحرام وكل شئ يحتاج إليه الناس ، ذلك أن النبى حينما قرب أمره أنزل الله عليه من السماء كتاباً مسجلاً نزل به جبريل مع أبناء الملائكة ، فقال جبريل يا رسول الله مر من عندك بالخروج من مجلسك إلا وجبك ليقبض منا كتاب الوصية يشهدنا عليه فخلأ البيت إلا من رسول الله وأمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين ثم قال لرسول الله : أن الله يقرئك السلام ويقول لك هذا كتاب بما عهدت وشرطت عليك وأشهدت عليك ملائكتى وكفى بى شهيداً ، فأخذ النبى الكتاب فدفعة إلى عليّ وأمره بقرائته ثم اشهد بالتبليغ والنصيحة والصدق ، وفى الوصية سنن الله وسنن رسوله وخلاف من يخالف ويغير ويبدل وشىء من جميع الأمور والحوادث التى بعد وفاة الرسول [1] ... ﴿ إنا نحن نحى الموتى ونكتب ما قدموا وأثارهم كُلَّ شىءٍ أحصيناه فى إمام مبين ﴾ [2] .

٢ - مصحف فاطمة :

فيه خير ما كان وخير ما يكون إلى يوم القيامة ، وفيه خبر كل سماء، وعدد ما فى السموات من الملائكة ، عدد كل من خلق الله من الأنبياء والمرسلين ... مرسلاً أو غير مرسل . وأسمائهم وأسماء من أرسل إليهم وأسماء من كذب ، وأسماء من أجاب ، وأسماء جميع خلق الله من المؤمنين والكافرين من الأولين والآخرين وأسماء البلدان ، وصفة كل بلد فى شرق الأرض وغربها ، وعدد من فيها من المؤمنين والكافرين الأولين والآخرين ، وصفة كل من كذب وصفة القرون الأولى وقصصهم ومن ولى فى الطواغيت ، ومدة ملكهم وعددهم وأسماء الأئمة وصفتهم وما يملك كل واحد منهم ، وصفة أهل الجنة ومن يدخلها وأهل النار ومن يدخلها وأسماء هؤلاء وهؤلاء ... وفيه علم القرآن كما أنزل وعلم التوراة والإنجيل والزابور وعدد

(١) المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، طبع القاهرة ، بدون تاريخ ، ١٢٢/٢ .
(٢) يس : ١٢

كل سيرة ، أنزله الله على فاطمة بعد وفاة النبى ثم دفعته إلى على بن أبى طالب وانتقل بعد ذلك إلى الأئمة [1] ...

٣ - الجامعة : أو الجفر الجامع :

كان عند على يقع فى ٢٨ فصلاً كل منها فى ٢٨ صفحة وهى صحف الأنبياء ففيه صحيفة آدم أورثها لأبنه شيث ، ثم أورثها إدريس ثم صحف إبراهيم وموسى وعيسى ثم جاء خاتم النبيين وفيها صحفه وأورث هذا إلى على خاتم الأوصياء فالجامعة هى صحف حاوية لعلوم الأنبياء جميعاً [2] ...

٤ - الجفر الأبيض والجفر الأحمر :

وأما الأبيض ففيه زابور داود وتوراة موسى وإنجيل عيسى وصحف إبراهيم والحلال والحرام فهو السلاح يفتحه صاحب السيف أو القائم للقتل [3] ....

ولكن كيف ينتقل العلم الإلهى إلى الإمام ؟ يقول الدكتور أحمد محمود صبحى « حين أراد الله خلق الإنسان أنبأ ملائكته بذلك فقالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك» فأجابهم الله : ﴿ إنى أعلم ما لا تعلمون ﴾ وما يعلمه الله ولم تعلمه الملائكة آنذاك أن يخلق خلقا ويجعل فيهم الأنبياء المرسلين والأئمة المهديين خلفاء على خلقه وحججه فى أرضه فينهون عن المعصية ، ويهدون إلى طاعته ويسلكون بالناس إلى سبيله فخلق محمداً والأئمة من المادة

---

(١) ابن رستم الطبرى : دلائل الإمامة - طبع القاهرة ، بدون تاريخ ، ص ٢٧ .

(٢) د . على سامى النشار : نشأة الفكر الفلسفى : ١٦١/٢

(٣) الكلينى (محمدى يعقوب) الكافى فى أصول الدين - مخطوط تحت رقم ٢١٢٢٦ ، دار الكتب المصرية ، ص ٥٣ .

النوراتية قبل أن يخلق آدم ، فكانت هذه المادة ترى فى وجه آدم ثم ورثها ابنه شيث ، كما أوحى الله إليه أنه خليفة ووارث علمه فأوصى آدم إليه وسلمه الاسم الأعظم وجعل العلم والأسماء والوصية فى تابوت ودفعها إليه ثم جمع ولده أجمعين فأشهدهم وأمرهم أن يسمعوا له ويطيعوا فهو وصيه وخليفته ثم تسلسل النور الإلهى من شيث إلى ولده ، وهكذا توارث بنو آدم من ذرية شيث النور والعلم والوصية كل حجة على قومه لأن الله لا يخلى الأرض من إمام حتى آل الأمر إلى نوح أول أولى العزم من الرسل بعد آدم ، فلما انقضت أيامه ورثها إبنه سام ثم تسلسل العلم فى أعقابه إلي هود ثم آل إبراهيم .... وهكذا ورث الأنبياء والأوصياء النور الإلهى حتى كان الأمر فى عبد المطلب فكان نور رسول الله كالغرة فى جبينه فكان به نصره على جيش أبرهة [١] ...

هكذا يضع الشيعة فكرتهم عن كيفية إنتقال العلم الإلهى إلى الإمام ويسندون إلى إمامهم السادس جعفر حديثاً نصه « ورب الكعبة لو كنت من بين موسى والخضر ، لا خيرتهما إنى أعلم منهما ولأنبأتهما بما ليس فى أيديهما لأن موسى والخضر أعطيا علم ما كان ، ولم يعطيا علم ما يكون وما كان حتى تقوم الساعة وقد ورثناه من رسول الله وراثة [٢] .

ولكن الإثنى عشرية قد واجهوا مشكلة تختص بإمامهم التاسع محمد الجواد بن على الرضا إذ مات أبوه وتركه فى الرابعة وبضعة أشهر وهذه المشكلة تكمن فى أن الإمام ينبغى أن يكون حاصلاً على العلم الإلهى ولكن هذا الإمام كان طفلاً فكيف حصل على علمه ؟! .

أجابت فرقة من الإمامية بأن الله عز وجل علمه ذلك عند البلوغ « بضروب

---

(١) د . أحمد محمود صبحى : نظرية الإمامة لدى الشيعة الإثنى عشرية ، ص ١٥٠ .

(٢) الكلينى : الكافى ، ص ٥٦ - ٦٠ .

مثل الإلهام والنكت فى القلب ، والنقر فى الأذن ، والرؤيا الصادقة فى النوم والملك المحدث له ، ووجوه رفع المنار والعمود والمصباح وعرض الأعمال » [1] .

أى لجأ هذا الفريق من الشيعة الإمامية إلى المغيبات ، يلتمسون فيها وفى تصورها إقامة علم الإمام ، بل ويذهبون إلى أن الأخبار الصحيحة القوية الأسانيد والتى لا يجوز دفعها ولا رد مثلها قد صحت فى الإمام محمد الجواد .

وطائفة ثانية لم توافق على أن علم الإمام من جهة الإلهام والنكت والملك لأن الوحى منقطع بعد النبى ﷺ والإلهام إنما هو أن يصحبك عند الخاطر والفكر معرفة بشئ قد تكون تقدمت معرفتك به من الأمور النافعة فذكرته ، وذلك لا يعلم به الأحكام وشرائع الدين على كثرة اختلافهم وعللهم قبل أن يوقف بالسمع منها على شئ لأن أصح الناس فكراً وأصحهم فكراً خاطراً وعقلاً .. وأحضرهم توفيقاً لو فكر وهو لا يسمع بأن الظهر أربع والمغرب ثلاث ما استخرج ذلك بفكرة ولا عرفة بنظره ولا استبدل عليه بكمال عقله ولا أدرك ذلك بحضور توفيقه ، ولا لحقه ذلك من جهة التوفيق أبداً ولا يعلم ذلك إلا بالتوقيت والتعليم ، فقد بطل أن يعلم شيئاً من ذلك بالإلهام والتوفيق [2] .....

وهنا تنقطع الإمامة ولكن هذه الطائفة من الإمامية ما تلبث أن تجد مخرجاً فتقول أن محمد الجواد هو « قبل البلوغ إمام على بمعنى أن الأمر له دون غيره إلى وقت البلوغ فإذا بلغ علم من كتاب إبنه وما ورثه من العلم فيها ويجده منها من الأصول والفروع . وذهبت هذه الفرقة إلى إجازة القياس فى الأحكام - للإمام خاصة على الأصول التى فى يديه ولكونه

---

(١) المصدر السابق ص ٦٥

(٢) الكلينى المصدر السابق ص ٦٢

معصوماً من الخطأ والذل فلا يخطىء فى القياس أبداً وبهذا انتهت هذه الطائفة إلى احتضان فكرة القياس فى علم الإمام المعصوم من الذل والخطأ .

ونحن نعلم أن الشيعة الإثنى عشرية لا تجيزه إطلاقاً (١)

أما الفرقة الأخيرة التى اختلفت فى علمه فقد أعطت الإمام القداسة العظمى التى تشيع فى فكر الإمامية عامة ، وهو أن الإمام إمام بالغ أو غير بالغ لأنه حجة الله على الأرض وقد يجوز أن يعلم وإن كان صبياً ويجوز عليه الإلهام والنقر والرؤيا فى الأرض ، وقد حدث هذا ليحيى بن زكريا من قبل ، وآتاه الله الحكم صبياً وعيسى بن مريم وغيرهما من الحجج (٢) ...

ثانياً - العصمة :

إن شخصاً يكون له مثل هذا العلم العظيم يسمو فوق أى علم بشرى ، يلزم له ضرورة البعد التام عن النقائص البشرية العادية فكان لابد لهم أن يضعوا لإمامهم صفة العصمة ... لتكون متممة للصورة الإمامية لديهم ، فيمزجونها بفكرة المعتزلة عن اللطف الإلهى .

ويتضح **تأثر الشيعة الإثنى عشرية بنظرية اللطف الإلهى لدى المعتزلة** بصورة واضحة فى تعريف الشيخ المفيد للعصمة إذ يرى أنها الإمتناع بالاختيار عن فعل الذنوب والقبح عن اللطف الذى يحصل من الله تعالى فى حقه ، وهو لطف يمتنع من يختص به عن فعل المعصية ولا تمنعه

---

(١) د . على سامى النشار : نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام ، ص ٢ ، ٢٨١

(٢) المسعودى : مروج الذهب ، ص ٣٧٤

على وجه القهر أى إنه لا يكون له حينئذ داع إلى فعل المعصية وترك الطاعة مع القدرة عليهما [١] .

ويقول .. الجيلانى (على بن فضل الله) صاحب توفيق التطبيق [٢] .. ليست العصمة مانعة من القدرة على القبح ، ولا مضطرة للمعصوم إلى الحسن ولا ملجئة إليه ، بل هى الشئ الذى يعلم الله تعالى أنه إذا فعله يبعد عن عباده ، لم تؤثر معه معصية له ، وليس كل الخلق يعلم هذا من حاله بل المظلوم منهم ذلك هم الصفوة الأخيار لقوله تعالى ﴿ ولقد اخترناهم على علم العالمين ﴾ [٣] .. وقوله تعالى ﴿ وأنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار ﴾ .

ويرى دونالدن : أن العصمة لطف من الله بالنسبة إلى (العبد) فلا يجد العبد فى هذا اللطف داعياً لترك الطاعة وراتكاب المعصية وأسباب اللطف أربعة :

أولاً : وجود خاصية فى نفس المعصوم ، أو بدنه تمنعه من الفجور بمقتضى الملكة .

ثانياً : أن له العلم بالمعايب ، وقبائح المعاصى ، وكذلك بالمناقب والمحاسن . ثالثاً : تأكيد هذا العلم بالإلهام من الله .

رابعاً : أن يؤاخذه الله عما يجب تركه وما يقتضى فعله فيعلم دواماً ما هو الصحيح بهذا قدم لنا الشيعة الإثنى عشرية فكرتهم عن الإمام

---

(١) الشيخ المفيد (محمد بن النعمان) : شرح عقائد الصندوق أو تصحيح الإعتقاد ، طبع القاهرة (بدون تاريخ) ص ١١٤

(٢) الجيلانى (على بن فضل الله) توفيق التطبيق - تحقيق للدكتور محمد مصطفى ، طبع القاهرة لسنة ١٩٤٥ ، ص ١٦

(٣) الدخان : ٣٢

ومدى علمه وعصمته ولم يكتفوا بذلك بل إنهم أوجبوا على كل مؤمن طاعته حتى تكتمل صورة الإمامة ولقد أنقسموا فى ذلك إلى فريقين آمن كلاهما بأن الإمامة ركن من أركان الدين - وأولوا فى ذلك الآيات القرآنية تأويلاً يناسب فكرتهم .

فنجد أحد الفريقين يرى أن موالاة الإمام شرط للإيمان وعدم موالاته (كفر على الإطلاق) والفريق الثانى رأى أن عدم موالاة الإمام أمر فيه ضلالة وليس فيه خروج على الدين وقد نسب الشيعة إلى جعفر الصادق والباقر وغيرهما من كبار فقهاء الشيعة الإثنى عشرية تفسيراتهم للآيات القرآنية ، ونقلهم لبعض الأحاديث النبوية أو الأحاديث المنسوبة إلى الأئمة أنفسهم كل ذلك للبرهنة على وجوب وجوب موالاة الإمام .

سئل الصادق عن رأيه فى أقوام لا يتولون أئمة الشيعة ويقولون فلاناً وفلاناً ومع ذلك لهم أمانة وصدق ووفاء ، وأقوام آخرون يقولون أئمة الشيعة ليس لهم تلك - الأمانة ولا الصدق أو الوفاء فاستوى الصادق غاضباً وقال : لا دين لمن دان الله بولاية إمام جائر ليس من الله ، ولا عتب على من دان بولاية إمام عادل من الله وكان لابد من أن يلقى هذا القول المنسوب إليه استنكاراً فقيل له : لا دين لأولئك ولا عتب على هؤلاء فأعاد الصادق قوله مستنداً إلى قول الله ﴿ الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ﴾ (١)

وسئل الصادق أيضاً عن الحديث من مات وليس له إمام فميتته ميتة جاهلية هل ميتة كفر ؟ فرد قائلاً ميتة ضلال وفى قول آخر جاهلية كفر ونفاق وضلال ..وروى الصادق عن أبيه عن جده حديثاً مرفوعاً إلى رسول

---

(١) البقرة : ٢٥٧

اللّه ﷺ ثلاثة لا يكلمهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ، من أدعى أمامة من اللّه ليست له ، ومن جحد إماماً من اللّه ، ومن زعم أن له فى الإسلام نصيباً [1] .

وإلى الباقر نسبت رواية حديث قدسى عن أبيه عن جده عن النبى أن اللّه قال : « لاعذبن كل رعية فى الإسلام والت بولاية إمام جائر ليس من اللّه وإن كانت الرعية فى أعمالها برة تقيه ولأعفون عن كل رعية فى الإسلام دانت بولاية كل إمام عادل من اللّه ، وإن كانت الرعية فى أنفسها ظالمة مسيئة » [2] ....

وقد حاول الشيعة بعد ذلك تثبيتاً لصورة الإمام فى أذهان العامة وتدعيماً لمكانته القدسية ، أن ينسبوا إلى أئمتهم بعض المعجزات التى اقتبسوها من الأنبياء نظراً لأن أمامهم لا يقل عن النبى رتبة .

ثالثاً : الرجعة (المهدية) :

نسبت جمهرة الشيعة إلى الإمام جعفر الصادق أنه أوصى بالإمامة له من بعده « لموسى الكاظم » [3] كما أن بعض الفرق توقفت عنده وقالت برجعته ، وفرقة أخرى تابعت موالاة الأئمة من عقبه فكان الإمام الثامن على الرضا وفى عهده حاول أن يضع معظم عقائد الفرقة وبعده تولى ابنه محمد الجواد الذى كان طفلاً عند وفاة أبيه وبعده تولى الإمام العاشر على الهادى ثم الحادى عشر الحسن العسكرى .

وهكذا بلغت الإضطهادات التى كانت تواجهها فرقة الإثنى عشرية وأئمتهم حداً أصبح فيه استمرار الإمامة أمراً محفوفاً بالمخاطر فكان لزاماً

---

(١) الكلينى : الكافى جـ ١ ، ص ٨٩

(٢) المصدر السابق ص ٩٢ ...

(٣) أئمة الإثنى عشرية على التوالى على بن أبى طالب ، الحسن بن على الحسين بن على ، على ابن الحسن (زين العابدين) محمد بن على الملقب بالباقر ، جعفر بن محمد الملقب بالصادق ، موسى ابن جعفر الملقب بالكاظم وهذا الإمام الأخير هو الذى اختلفت فيه الفرق بعد جعفر الصادق واتخذه =

على هذه الفرقة أن تجعل لنفسها إماماً يكون فى حمى الله فلا يمسه أحد من البشر بسوء ، فقالوا أن الحسن العسكرى هو الإمام الحادى عشر كان له ولد يدعى محمد بن الحسن العسكرى يتولى منصب الإمام الثانى عشر، ولكنه يغيب عن الدنيا ثم يعود إليها ليملأها عدلاً كما ملأت جوراً ، ولقبوه .. بالمهدى المنتظر .

ومن أسباب انتشار عقيدة المهدى لدى الشيعة بعامة وفرقة الإثنى عشرية بخاصة كما يرى (فان فلوتن) [١] هى الأصول اليهودية التى يعتقد اليهود بمقتضاها أن النبى ايليا رفع إلى السماء ... وإنه لابد أن يعود إلى الأرض آخر الزمان لإقامة دعائم الحق والعدل وأن إيليا هو النموذج الأول لأئمة الشيعة الغائبين والذين سيعودون يوماً كمهديين منقذين للعالم [٢] وليس الإعتقاد بظهور مخلص مقصوراً على الشيعة أو غير الشيعة من فرق المسلمين إذ إنه إعتقاد شائع فى كثير من الديانات الشرقية.

ومهدى الشيعة الإثنى عشرية يعتبر المحرر أو المخلص المنتظر ، لذلك فقد أحاطوه بغيبيات تليق بمقامه واسرفوا فيها لدرجة أن البعض من معارضى الشيعة شكوا فى ولادته وبالتالى وجوده ولكن هذا الغموض يعتبر من أسرار قداسة القائم أو المهدى والإيمان العينى به وإذا كان التشيع « الاثنى عشرية » هو البيئة الملائمة لنمو بذور الأمانى المهدية .. فإن الغموض الذى أحاط بمحمد بن الحسن العسكرى كان من العوامل الفعالة التى أسهمت فى رسوخ العقيدة لدى الشيعة.رسوخاً تفوق به سائر الطرق أو الطوائف التى تؤمن بالمهدية سواء فى الإسلام أم فى غيره من الديانات . وفى ولادة المهدى يشبه عيسى كذلك ، إذ نطق حين ولادته قائلاً: (مامعناه)[٣]

= الإثنى عشرية إمامهم السابع وجعلوا الإمامه بعده فى عقبه (راجع د . /أحمد صبحى ، نظرية الإمامة ص ١١٢) .

(١) فان فلوتن : السيادة العربية والشيعة والإسرائليات ترجمة د . / حسن إبراهيم (دائرة المعارف البريطانية ص ١٠٨) .

(٢) جولد تسهير : العقيدة والشريعة فى الإسلام - ترجمة د/محمد يوسف موسى وآخرين ، دار الكتاب المصرى سنة ١٩٤٥ ، ص ١٩٣

(٣) الكاظمى (محمد بن المهدى) الإمام المنتظر ، طبع القاهرة ، بدون تاريخ ، ص ٣٧

« أنه سيكون مع الذين استضعفوا فى الأرض وسيجعلهم أئمة ، وسيجعلهم الوارثين » كما وجد مكتوباً على ذراعه ﴿ قل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً ﴾ ويعتقد الشيعة الإثنى عشرية أن المهدى اختفى فى سامرا - بالحلة ولذلك يذهبون كل ليلة إلى باب السرداب فى مسجد سامرا ، وقد أعدوا مركباً وعليه السلاح ويقرؤنه السلام ، ويدعونه للخروج « باسم الله يا صاحب الزمان ، أخرج قد ظهر الفساد وكبر الظلم وقد آن آوان خروجك ويسلمون عليه منادين « خليفة الله ووصى الأوصياء الماضيين وبغية الله من الصفوة المنتخبين ونائب الله الذى لا يؤتى إلا منه ونور الله الذى لا يطفأ [1] ...

وقد انتهى دور الأئمة بالتوقيت فى موت الإمام الثانى عشر ويبدأ دور الوكلاء الأربعة والإمام الحسن العسكرى قد عين أول هؤلاء الوكلاء وهم عثمان بن سعيد ، ثم عين عثمان ابنه محمداً . ثم عين محمد الحسن بن روح . وكان الوكيل الأخير هو على السمرى .... ولهؤلاء الوكلاء عند الشيعة الإثنى عشرية ما للأئمة من الاحترام والتقديس .

وقد كان هؤلاء الوكلاء الأربعة من خواص الإمام العسكرى وكانوا هم الوسطاء بينه وبين شيعته ، يلجأ إليهم فى أصول الدين وفى الأحكام الفقهية وقد شهد الإمام العسكرى بعدالتهم وجعلهم أمناء على شئون الإمام المهدى وبموت الرابع بدأت غيبة الإمام الكبرى [2] . لقد كانت غيبة الإمام الصغرى فى تلك الفترة التى كان الوكلاء الأربعة الواحد بعد الآخر يعدون وسائط بين الناس وبينه ولما توفى أخر الوكلاء .. غاب الإمام غيبته الكبرى فهل هذا معناه أن الإمام محمد بن الحسن العسكرى كان يحيا فى أذهان أولئك الوكلاء فقط ؟؟

---

(١) المصدر السابق ص ٤٢

(٢) د . على سامى النشار : نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام ، جـ ٢ ص ٢٨٦

غاب الإمام ولكنه لم ينقطع سلطانه على الناس أنه حي فى خلود دائم حتى يوم رجعته ، أنه ينظر الناس ويراهم وهم لا ينظرونه ولا يرونه ولكن قد يراه خواص الناس أنه هو المتصرف فى شئون شيعته « القائم على أمورهم المدبر لوجودهم »[١] .

* * *

وعلى ذلك .. ومما سبق يتضح لنا أن نظرية الإمامة عند الشيعة الإمامية الإثنى عشرية اتخذت من الدين سنداً يوطد آرائهم السياسية .. خاصة - كما رأينا - فى تحديد تنصيب الأئمة .

ويلاحظ أن معتنقى مذهب الإثنى عشرية بالذات كانوا هم أولئك الذين فشلوا فى الحصول على أى انتصار سياسي مما أدى بهم إلى اليأس من استخدام أسلوب المجابهة بقوة السلاح فتحولوا إلى أسلوب المحاولة بالغلو فى الأسطورة مازجين آرائهم بالدين مما أدى إلى ظهور فكرة الإمامة الروحية لديهم .

كما أن اليأس من الحصول على الحقوق السياسية والإجتماعية من ناحية ، والخطر الذى يتهدد حياة الأئمة من ناحية أخرى أدى بهم إلى إيقاف سلسلة الإمامة عند إمام يحكم فتستمر سلطته الروحية وهو غائب فلا تمتد إليه يد الأعداء . إذ هو فى حمى الله ليعود فى آخر الزمان ليملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً .

* * *

(١) المصدر السابق : نفس الموضع .

الفصل الثالث
الإمامة عند الإسماعيلية الباطنية

أولاً نشأة الإسماعيلية :

نشأت الإسماعيلية نشأتها الأولى سنة ١٢٨ هـ فى العراق ، وفارس كدعوة دينية ، وحينما خلا الجو للفرع الحسينى بعد أن ضعفت جماعات الحنفية والحسنية . وحينما اشتغل العباسيون بتتبع فلول الطوائف العلوية الأخرى ، ويذهب بعض علماء الإسماعيلية ، إلى القول بأن دعوتهم قديمة أى منذ بدء الكون ، وأن التسمية الإسماعيلية بدأت منذ عهد إسماعيل بن إبراهيم الخليل ، وإننا لا نجد بين أيدينا مصادر تاريخية مقنعة تؤيد هذا الرأى تأييداً قاطعاً ، وهذا ما يجعلنا مع أكثر الباحثين والمهتمين نولى اهتمامنا عند بحث الإسماعيلية ، مبتدئين من عهد إسماعيل بن جعفر الصادق (١) .

إن الإسماعيلية كفرقة أمامية تقول ، بإمامة إسماعيل بن جعفر بن محمد الصادق ، ثم اختلفت مع الإمامية فى تسلسل الإمامة ، وتعتبر الإسماعيلية الفرقة المؤسسة للباطنية وللتأويل وموجدة الفلسفة فى العقائد الإسلامية ، ومنها تفرعت فروع عديدة أهمها :

المستعلية الداوودية ، السلمانية ، النزارية ، المؤمنية ، القاسمية ، الأغاخانية ، الدروز ، القرامطة ، والخسروية (٢) .

فى الواقع أن الحركة الإسماعيلية الدينية ، بدأت تتحول إلى دعوة

---

(١) كتاب الإمامة فى الإسلام . عارف تامر . دار الكتاب العربى . بيروت النهضة ص ١٣٨ .

(٢) نفس المصدر .

سياسية تقول بإمامة إسماعيل بن جعفر على أنه لم يمت فى حياة والده ، بينما تذهب المصادر التاريخية المحايدة من ناحية والسنة والشيعية الإمامية من ناحية أخرى إلى أنه مات فى حياة والده .

ومهما يكن من أمر ، فإنه بعد موت إسماعيل ساقوا الإمامة لولده محمد ، الذى كان يعيش فى الحجاز آمناً إلا أنه هرب منها ، متنقلاً من مكان إلى مكان . إلى فرغانة وإلى نيسابور ، حيث استقر فى قرية من قرى السرى هى سسلا ، وقد نسبت إليه فيما بعد وسميت بمحمد آباد ، وكان يرجو من رحلته هذه :

أولاً : إتخاذ دار هجرة وقد أصبحت هذه عقيدة عند الإسماعيلية .

ثانياً : أن يكون بعيداً عن عيون الخليفة فى الحجاز فيستطيع بسهولة أن يبث دعاته .

ثالثاً : فشله فى الحجاز أمام عمه - القوى - موسى الكاظم والإمامية ، ولم تستجب له الإمامية كثيراً .

رابعاً : كانت الحجاز مليئة بالعلماء والفقهاء فى عصر العباسين الزاهر ، ولا شك أن محمد بن إسماعيل كان من أصحاب منهج التأويل الباطنى - وإن كنت أعتقد أنه لم يذهب فيه إلى المدى الذى ذهب أليه أتباعه فيما بعد وغلو فيه ، إلا أن هذا المنهج لم يكن ليجد آذاناً صاغية فى مدينة الرسول أو فى مكة .

خامساً : يبدو أن دعاته كانوا قد انتشروا فى شرق المملكة الإسلامية ونشروا الدعوة هناك . فذهب محمد بن إسماعيل إلى أرض زرعت له من قبل [1] .

---

(١) د . على سامى النشار . نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام جـ ٢ ١٩٦٥ . ص ٣٨٢ - ٣٨٣ .

ومهما يكن من أمر . فإنه بعد وفاة محمد بن إسماعيل ، ساقوا الإمامة لولده عبد الله الذى انتقل إلى سلمية - سوريا ، وأقام فيها متستراً ينشر دعوته بحذر شديد .

وفى هذه الفترة بالذات ظهرت الحركة الإسماعيلية بقوتها التنظيمية ومخططاتها السرية فى كل مكان ، فانتشرت تلك التعاليم الجديدة على المجتمع فى المغرب على يد أبى عبد الله الشيعى سنة ٢٩٦ هـ . وفى اليمن سنة ٢٧٠ . على يد ابن حوشب « منصور الأهوازى » ، وحمدان بن الأشعث « قرمط » وأبى سعيد الجنابى « الحسن ابن بهرام » ، و « زكروية ابن مهدوية » الفرج بن عثمان الكاشانى ، وفى مصر على يد أبى على الداعى المقيم ، وفى فارس على يد نصر بن أحمد السامانى أمير خراسان ، وبلاد ما بين النهرين ومرداً وينج الديلمى أمير طبرستان ، ويوسف بن البايغ أمير أذربيجان وغيرهم [١] .

هذا هو تعريف الإسماعيلية على ما يراه أحد الشيعة والواقع أن ما أقامته هذه الفرقة من نظريات (يوتوبية) قد كان له من الأثر فى مختلف جوانب المجتمع العربى فى مختلف المجالات .

فمن الناحية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، إذا كان المجتمع العربى الإسلامى مليئاً بالحيوية ، صاخباً بالحركات ، وهى حركات اختلفت صبغتها - واتجاهاتها بتطور ذلك المجتمع ، ففى العصر الأموى كانت أولاً سياسية دينية تقتصر على العرب ، كما فى حركة الخوارج ، وحركة الشيعة فى بدئها ، ثم - اكتسبت صبغة اجتماعية اقتصادية وتوسعت فضمت غير العرب كما حصل لحركة العلويين .

---

(١) عارف تامر . الإمامية فى الإسلام . دار الكتاب العربى . النهضة فى بغداد ، ص ١٣٨ - ١٣٩ .

وكانت الدعوة العباسية حركة سياسية تريد ضرب الأمويين ، اجتماعية اقتصادية تدعو إلى مساواة الموالى بالعرب فى الوظائف والعطاء ، وإلى رفع الضغط الواقع على الموالى فى الضرائب ، دينية تنادى بالسير على الكتاب والسنة ، وكان اعتمادها بالدرجة الأولى على الموالى والفرس ، ولذلك كانت صبغتها الاجتماعية والاقتصادية قوية من جهة ، كما أنها استوعبت جماعات فارسية قديمة لها برامج اجتماعية ذات صبغة اشتراكية هى فى حقيقتها استمرار لحركة مزدك الاشتراكية ، كما هو كذلك فى حركات الغلو وكما كان هو دافع الحركات الخرمية [1] .

ولكن فشل العباسيون فى تحقيق العدل الاجتماعى وفى اجابة رغبات الغلاة وفسحهم المجال أمام الموالى ، وانتشار الروح الفارسية أدى إلى نشاط الثورات فى فارس بخاصة . فحصلت ثورات متعددة فى العصر العباسى الأول كلها تعنى بالناحية الاقتصادية فتتدرج من محاولة بسيطة لتحسين حالة الفلاحين إلى برامج اشتراكية ثورية ، وكانت كلها تصطبغ بصبغة فارسية قومية وتدعو إلى نقض السلطان العربى .

فشلت هذه الحركات ، وتبين أن الثورة المسلحة وحدها تكفى لتحقيق الهدف فلا غرابة أن الحركة الاجتماعية الثورية تتخذ لها مقراً آخر ، وتستفيد من الخبرات السابقة ومن تطور المجتمع . وأضف إلى ذلك ظروفاً جديدة ، منها انتشار الفلسفة اليونانية فى العصر العباسى بين المثقفين ، فقوت الشك بينهم ، وفتحت طريقاً لمقاومة الدين ، ويقابل ذلك قلة ثقافة الطبقة العامة ، وتسرب الخرافات إليهم ، مما سهل عليهم قبول أى دعوة .

ثم هناك تطور اقتصادى اجتماعى مهم حدث فى العصر العباسى ، نتج

---

(١) د . برنارد لويس . أصول الإسماعيلية نقلها إلى العربية : خليل أحمد جلو ، وجاسم محمد الرجب . منشورات مكتبة المثنى . طبع دار الكتاب العربى مصر ، سنة ١٩٤٧ ؛ ص ٥ .

من انتقال المجتمع من طور زراعى إلى طور تجارى ، فأدى إلى تباين الثروات وتكدس رؤوس الأموال عند فئة محدودة ، وشعورها بالخطر من الطبقات الفقيرة ، مما ولد اتحاداً بين مصالح الأغنياء من العرب وغير العرب ، وبين مصالح الفقراء من موالى وعرب على أساس اقتصادى لا عنصرى .

هذه التطورات وفشل الحزمية ، جعل بذور الغلو الكافية ، والتى لعبت دورها فى الدعوة العباسية تكتسب حيوية جديدة ، واتجاهاً جديداً وشكلاً جديداً من خبرتها المكتسبة من فشل الخرمية ، ومن فهمها لتطورات المجتمع، فتبدأ بحركة اقتصادية اجتماعية سياسية ثقافية لا عنصرية ، ترمى إلى توحيد المتذمرين من كل العناصر والأديان فى جو من التعاون والحرية الفكرية لتقويض المجتمع القائم وانشاء مجتمع آخر لا استغلال فيه ولا تحكم دين أو عنصر (١) .

هكذا يتضح أن الإسماعيلية بمختلف فرقها وعقائدها ، قد ظهرت فى جو زاخر بالعوامل الاقتصادية والتى تمتد جذورها منذ أوائل العصر الأموى ... ولقد كانت الظروف والأحوال فى الربع الثانى من القرن الثانى للهجرة مواتية لاستئناف الحركات الثورية وإعادة توجيهها ، فقد أدى تسلم العباسيين الحكم سنة ١٣٢ هـ ، سنة ٧٥٠ م . إلى تغيرات جوهرية عدة أهمها ، فوز الحزب الهاشمى الذى مثله العباسيون ، واصطباغ الفرقة الراوندية بالطابع الرسمى ، الأمران اللذان أديا إلى نهاية سلالة المدعين من الحنفية ، وذلك منذ سلم أبو هاشم بن محمد بن الحنفية الأمر إلى العباسية ، وكاد أن يختفى الفرع الحنفى ، وبذلك ترك المجال مفتوحاً للسلالة الفاطمية التى كان جعفر أبرز رجالها . ثم أن الثورة العباسية

---

(١) برنارد لويس . أصول الإسماعيلية . ١٩٤٧ م ص ٩٥ .

أوجدت مرحلة جديدة فى تاريخ الإسلام الاجتماعى والاقتصادى : فقد أنتجت الطبقات الحاكمة غير العربية ، واندماجها بالدولة العربية السنية وازدياد التقارب والوحدة بين طبقات الرعية من العرب والموالى تقسيماً جديداً للطبقات يعتمد على الاقتصاد أكثر مما يعتمد على النسب والعنصر ، كما كان فى القرن الأول ، تقسيم مكنه وعززه انتقال الخلافة من دولة زراعية عسكرية إلى دولة امبراطورية تجارية أممية . وقد بدأ هذا التغيير خلال القرن الثانى وقطع شوطاً بعيداً فى القرن الثالث . فكان من المحتم أن ينجم عن هذا التبدل العظيم فى الأحوال الاجتماعية ونظام استئناف تنظيم الحركات وتوسيعها . تلك الحركات التى تعبر عن تمرد الطبقات والشعوب الرازخة تحت الظلم [1] .

ولقد واجه المتشيعون عدة مشاكل ، غير ما كانوا يلاقونه من اضطهاد الأمويين والعباسيين ، فقد تكاثر عدد أفراد أهل بيت الرسول بمرور السنين ، وتفرقت الأسرة فى بلاد مختلفة ، الأمر الذى أدى إلى أن أصبح من الصعب معرفة أكبر أفراد الأسرة سناً ، وهو الشخص الذى له الحق الشرعى فى تولى أمر الشيعة حسب عقائدهم الأولى . وكان لزاماً إذن أن تتطور فكرة اختيار أكبر الأفراد سناً إلى اختيار أبرزهم فى الحياة العامة ، ثم تطورت هذه الفكرة مرة أخرى إلى اختيار المعهم شأناً من أبناء الحسين بن على ، ولا سيما بعد أن ظهر فى فرع الحسين بن على أعظم أهل البيت موهبة فى العلم والدين : وهو جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب ، المتوفى حوالى سنة ١٤٧ هـ ، الذى ألتف حوله عدد كبير من الشيعة ، حتى أعتبر فى نظر الشيعة الإمامية أنه المؤسس الحقيقى للمدرسة الشيعية الدينية وواضع أصول

---

(١) د . برنارد لويس ، أصول الإسماعيلية ، سنة ١٩٤٧ م ، ص ٩٧

العقيدة الشيعية ، وذلك بالرغم من أن المعروف عن جعفر الصادق تاريخياً أنه لم يناد بنفسه إماماً للشيعة ، ولم يقم بثورة يطالب فيها بالحكم ، ولكنه بفضل شخصيته الفذة ومواهبه المتعددة ، وشدة ورعه وتدينه استطاع أن يمد جماعة الشيعة الذين التفوا حوله بما كانوا فى أمس الحاجة إليه من وجود شخص من أهل البيت يجتمعون إليه ويأخذون العلم عنه [١] .

على ذلك يمكن أن نلاحظ أن الشيعة الإمامية فى معظمهم قد اتفقوا فى تحديد أئمتهم حتى الإمام السادس ، وهو جعفر الصادق ، إلا أنهم نظراً لأنه أعقب خمسة أبناء - اختلفوا على شخص الإمام من بعده . وتفرقوا إلى عدة فرق ... من أهمها وأظهرها فى التاريخ :

فرقة نادت بموسى الكاظم ابن جعفر الصادق إماماً لها ، وجعلت الإمامة فى عقبة من بعده ، حتى توقفوا عند الإمام الثانى عشر وهم الإثنى عشرية .

أما الفرقة الثانية التى تفرعت عن المذهب الجعفرى فهى فرقة الإسماعيلية الذين قالوا بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق فنسبت إليه الفرقة ، ومن الطريف أن مؤرخى الإسماعيلية وعلماءهم يروون قصة عن سبب انشقاق أتباع جعفر الصادق إلى هاتين الشعبتين ، فقال بعضهم أن جعفر الصادق ينص على أن يتولى إسماعيل الإمامة من بعده ولكن إسماعيل توفى فى حياته أبيه ، وبذلك انتقلت الإمامة إلى ابنه محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق لأن الإمامة لا تكون إلا فى أعقاب ، ولا تنتقل من أخ إلى أخيه إلا فى حالة الحسن والحسين ابن على بن أبى طالب فقط ، أما الإمامة بعد الحسن والحسين فلابد أن تنتقل من أب إلى إبن ، وأولوا الآية القرآنية الكريمة ﴿ وجعلها كلمة باقية فى عقبة ﴾ بأن معنى الكلمة هى

---

(١) محمد كامل حسين - طائفة الإسماعيلية ، تاريخها ، نظامها ، عقائدها . الناشر مكتبة النهضة المصرية ص ٨ و ص ٩ .

الإمامة ، وأنها لابد أن تكون فى الأعقاب دون غيرهم ، وربما أن إسماعيل ابن جعفر الصادق كان صاحب الحق الشرعى فى الإمامة إلى ابنه محمد بن إسماعيل هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى كان محمد بن إسماعيل أكبر سناً من عمه موسى الكاظم ، فبناء على التقليد الشيعى القديم الذى يوجب تسلسل الإمامة فى أكبر أهل البيت سناً ، كان محمد بن إسماعيل إذن أحق من عمه موسى الكاظم بالإمامة ، على أن أكثر مؤرخى الإسماعيلية يقولون أن قصة وفاة إسماعيل بن جعفر فى حياة أبيه إنما كانت قصة أراد بها جعفر الصادق التمويه والتعمية على الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور الذى كاد يطارد أئمة الشيعة فخاف جعفر الصادق على ابنه وخليفة إسماعيل فادعى موته ، وأتى بشهود كتبوا محضراً بوفاته وأرسل ذلك المحضر إلى الخليفة العباسى الذي أظهر سروراً وارتياحاً لوفاة إسماعيل الذى كان إليه أمر إمامة الشيعة ، ثم شوهد إسماعيل بعد ذلك فى البصرة ، وفى غيرها من بلاد فارس . وعلى ذلك فالإمامة لم تسقط عن إسماعيل بالموت قبل وفاة أبيه لأنه آت بعد أبيه ، ويرى كذلك د . محمد كامل حسين فى كتابه ، « طائفة الإسماعيلية » ، أنه لا يغلو إذا قال أن هذه القصة - قصة التمويه بوفاة إسماعيل - هى قصة خيالية وضعها بعض أصحاب المناقب من مؤرخى ، وكتاب الإسماعيلية الذين يكثرون من مثل هذه القصص فى كتاباتهم ليضفوا على الأئمة الإسماعيلية مناقب وفضائل لا يقرها عقل [1] .

وبالإضافة إلى ذلك فإن جعفر فعله تقية ، حتى لا يعرض ابنه للقتل

---

(١) د . محمد كامل حسين - طائفة الإسماعيلية . مكتبة النهضة المصرية . ص ١١ - ١٢ - ١٣ .

وفى الحق أن جعفر فعل هذا خوفاً من ادعاء الغلاة بغيبته ورجعته . لاخوفاً عليه من المنصور (١) .

مهما يكن الأمر فإننى لن أخوض كثيراً فى عملية نسب الإسماعيلية وما أحاط به من مشاكل إلا بقدر ما يتعلق بالبحث فى أفكارهم (اليوتوبية). تلك الأفكار والعقائد التى يدعى البعض أن جعفر الصادق هو مؤسسها ، - وواضع النسق المتكامل لها ، ويرى أخرون أن مؤسسها مولى لجعفر الصادق يدعى ميمون القداح ، وآخرون أيضاً يرون أن مؤسسها يدعى المبارك - خادم إسماعيل - ولكن برنارد لويس فى كتابه أصول الإسماعيلية يحدد أصل الإسماعيلية بقوله أن هناك مجموعتين من التصانيف حفظت لنا اسم أبى الخطاب وعقائده ، وفيها اشارة وافية إلى الدور الحاسم الذى اضطلع به : أولاهما « أم الكتاب » الشهيرة وهى كتاب سرى مقدس عند الإسماعيلية فى آسيا الوسطى يمثل - كما يشير العلامة الذى أشرف على طبعه - مرحلة قديمة جداً لتطور أفكار الشيعة الثورية .

وهذا الكتاب يجعل لأبى الخطاب مقاماً خطيراً فى هذه الحركة فيعتبره مؤسس المذهب ويقرنه بسلمان فى عظيم أهميته . وعبارته فى ذلك واضحة صريحة إذ يقول : أن المذهب الإسماعيلى هو ما أوجدته ذرية أبى الخطاب «أتباعه » الذين بشروا أنفسهم بحب أحفاد حعفر الصادق (و) إسماعيل.

ثانيتهما : كتابات النصيرية التى درسها ماسينيون . وفيها فقرات وعقائد شبيهة بتلك وهى أيضاً تعتبر أبا الخطاب مؤسس الفرقة ، وميموناً

---

(١) د . على سامى النشار . نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام جـ ٢ . الطبعة الثالثة ١٩٦٥م . دار المعارف الإسكندرية ص ٣٦٩ .

القداح تابعاً له وتنسب أغلب العقائد التى يختص بها المذهب الإسماعيلى إليه [1] .

وإن كان الأستاذ الدكتور النشار قد رفض الفكرة التى تقول بأن أبا الخطاب الأسدى هو مؤسس هذه الفرقة ، وإن رأى أن عقائدها من بعده دخلت من بين عقائد هذه الفرقة فيقول : أن أبا الخطاب لقب بكنية أبى إسماعيل . وفى هذا دليل على الصلة بين أبى الخطاب وإسماعيل ، وأن تعقبه بهذه الكنية وإنما معناه أن الخطابية أصل للإسماعيلية ، ولكن ينبغى أن نلاحظ أن أبا الخطاب فى الفترة الثانية من حياته . وبعد تبرؤ الإمام جعفر منه . وتبرؤ إسماعيل أيضاً قد نقل الإمامة إلى نفسه [2] . كما يقول ماسينيون باعتبار أن الاختيار الإلهى بالتبنى الروحى هو وحده المعتبر . قد يكون فكرة التبنى الروحى الخطابية ملهمة - القداحية - فيما بعد - حينما سلبوا - فى رأى أغلب مفكرى أهل السنة - آل محمد - الإمامة أو النبوة والألوهية ونسبوها إلى أنفسهم ، ولكنها لم تكن أبداً فى هذا الوقت المبكر سنداً لفكرة الإسماعيلية ، ولا شك أن الكثير من أصول الخطابية قد دخلت فى عقائد الإسماعيلية فيما بعد . ولكن تم هذا بعد مقتل أبى الخطاب - واعتناق كثير من أتباعه للإسماعيلية فى عهد عبد الله بن ميمون القداح . وقد لاحظ ماسينيون أننا نستطيع أن نربط بين فكره (السين) عند أبى الخطاب الأسدى وبين فهم الإسماعيلية للدور الذى قام به سلمان حين حمل

---

(١) ماسينيون : سلمان : ومقالة عن النصريين فى دائرة المعارف الإسلامية « منقول ذلك من أصول الإسماعيلية السابق ذكره » .

(٢) د . على سامى النشار . نشأة الفكر الإسلامى فى الإسلام . ص ٣٧١ .

حين حمل القرآن كله إلى محمد . فأبو الخطاب - عند ماسينيون - هو أول من فهم دور السين - دور سلمان - حين حاول أن يحققه فى نفسه [1] .

ثم أتت الإسماعيلية وفهمت نفس هذا الدور . والإسماعيلية مسلمون يؤمنون بالوحى على نحو خاص فيه يستبدل باملاء ملك خفى تعليماً ينتقل من نفس إلى نفس ، نقله بأمر الله إلى النبى صاحبه سلمان ، فسلمان هو الملك جبريل ، وهو الاسم الذي أطلق على سلمان باعتباره حامل الرسالة الإلهية . فهو إذن سبب الشد والتلقين [2] .

وقد ذكر الأستاذ الدكتور النشار من قبل أن هذا هو تفسير ماسينيون لموقف أبى الخطاب أولاً ، ثم لاعتباره - ثانياً - سلفاً للإسماعيلية ، أو مؤسساً لها . ولكنه لا يصور الواقع أبداً [3] .

ويضيف . أن الوضع الحقيقى للمسألة أن الخطابية بعد مقتل رئيسها توزعت . دخل البعض فى طائفة الخناقين ، ودخل البعض الثانى فى الكيسانية ، ودخل البعض الثالث فى الإسماعيلية أو الإئتمام بإمامة محمد بن إسماعيل . ولعل البعض الثالث هذا كان أكثر الخطابية [4] .

ولذلك نرى أبا خلف القمى يقول « فإما الإسماعيلية فهم الخطابية أصحاب أبى الخطاب بن أبى زينب الأسدى الأجدع ، وقد دخلت منهم فرقة فى فرقة محمد بن إسماعيل ، وأقروا بموت إسماعيل بن جعفر » [5] .

ولكن انتشار الدعوة لإسماعيل ثم لابنه إنما بدأت على يد مولى لجعفر

---

(١) ماسينيون . شخصيات قلقة ص ٣٣ (ترجمة د . عبد الرحمن بدوى) .

(٢) ماسينيون . شخصيات قلقة ص ٣٣ (ترجمة عبد الرحمن بدوى) .

(٣) د . على سامى النشار . نشأة الفكر ص ٣٧٢ .

(٤) د . على سامى النشار . نشأة الفكر ص ٣٧٢ .

(٥) القمى : كتاب المقالات ص ٨١ والنويتجى ، فرق الشيعة ص ٦٩ .

الصادق هو ميمون القداح وابنه عبد الله بن ميمون وذهبت بعض المصادر إلى أنهما كانا تلميذين لأبى الخطاب . ومن المحتمل هذا ، ولكن يبدو أن صلتهما به قد انقطعت حين تبرأ منه الإمام جعفر . وقد اتهمت دوائر أهل السنة والجماعة الإثنين بأنهما ديصانيان ، وأن ميموناً هو ابن ديصان بن سعيد غضبان ، وقيل أنهما يهوديان ، وأنهما أنشأ المذهب الإسماعيلى للقضاء على الإسلام . وهذا خطأ كبير فميمون القداح كان مولى للباقر ولجعفر الصادق ، ووثق به الإمام الأخير ، وكان من رواة حديثه ، ويبدو أنه اختص بإسماعيل وأحبه ثم اختص بابنه محمد بن إسماعيل . ويبدو أن ميمونا - وقد عاش فى هذا الوسط العلمى وتتلمذ على شيخى المذهب الإمامى الكبيرين الباقر والصادق - كان على علم نفاذ وحنكة سياسية ، وأخذ يتنقل مع إمامه محمد بن إسماعيل إلى طبرستان وغيرها متخذاً نفسه حجة له ، وقد قبض المنصور فى أواخر أيامه على ميمون ، وفى السجن اجتمع مع جماعة من وجوه الشيعة ، واتفقوا على نشر المذهب بعد خروجهم من السجن (١) .

ويقول ابن الأثير : أنهم تفرقوا فى البلاد وتعلموا الشعبذة والسحر والنجوم والكيمياء فهم محتالون على كل قوم بما يتفق عليهم ، ويخدعون العامة باظهار الزهد والتقشف .

وخرج ميمون من السجن واجتمع بإمامه محمد بن إسماعيل مرة ثانية متنقلاً معه من مكان إلى مكان ، وتتبع الدكتور حسن إبراهيم ، والدكتور طه شرف تنقلات ميمون ورحلاته . فقد ذهب إلى فلسطين ، وهناك أظهر النسك والتعبد ، ثم قصد إلى سورية وطبرستان (٢) .

وقيل أيضاً أنهما ذهبا إلى بلاد الروم . ومن هنا نشأت فكرة غيبة

---

(١) البغدادى : الفرق ، ص ١٦٩ .

(٢) د . حسن إبراهيم ، والدكتور طه شرف : عبد الله المهدى ، ص ٤٥ .

محمد بن إسماعيل هناك . وفى كل مكان يجمع حوله فلول المباركية والخطابية والجعفرية ، ويعد العدة للمذهب الجديد [١] .

ويذكر المؤرخون السنيون أن له كتاب « الميزان » وأنه كتب هذا الكتاب فى نصره الذندقة . وهذا مستبعد جداً فلم يكن الرجل ذنديقاً أو ديصانياً فى أول أمره على الأقل . بل كان أولاً وبالذات من محبى ومتشيعى إسماعيل بن جعفر وابنه ثم من المحتمل وقد كان الرجل عارفاً بالمذاهب الفلسفية والغنوصية والأديان أن يحاول تدعيم إمامة إسماعيل ، وابنه بمختلف العناصر الفلسفية وبخاصة أنه تتلمذ مدة على أبى الخطاب . وإن كنا نلحظ أن الإمام جعفر الصادق لم يتبرأ منه فى حياته بل كان يثق فيه ، وقد جعله قيماً على حفيده . وكان أيضاً من رواته ورواة أبيه ، ولم يرد عن جعفر الصادق حتى موته ما يقدح فيه . كل هذا يجعلنا نتوقف كثيراً فى الحكم على الرجل بالذندقة أو بالديصانية . من المحتمل أن يكون الكتاب فى التأويل الباطنى ، وأنه أخذ يؤول الآيات القرآنية بما يتفق مع عقيدته فى إمامة إسماعيل وابنه محمد . وأن يسبغ عليهما القداسة التى أضفتها الإمامية على أئمتها وأنه تغالى إلى حد كبير فى فضائل هذين الإمامين . والغلو فى الأئمة خروج على الإسلام فعلاً - نصه وروحه ولكنه يختلف عن الديصانية الخالصة أو الذندقة الخالصة ، وإن كان هذا النوع من الغلو أشد خطراً على الإسلام ووحدته من كل ثانوى سافر [٢] .

ويستطرد الدكتور النشار . بأن ما يقصده ميمون أنه لصلته بالإمامين الباقر والصادق ثم بإسماعيل وابنه محمد بن إسماعيل ولوصاية جعفر الصادق أنه يكون قيماً على حفيده محمد بن إسماعيل ، فهو من آل البيت ،

---

(١) د . على سامى النشار . نشأة الفكر ص ٣٧٣ .

(٢) المصدر نفسه . ص ٣٧٣ و ٣٧٤ .

كما قال رسول الله ﷺ لسلمان : « أنت منا آل البيت » فهو من نسل سلمان الروحى ، وعلى مثاله ونسقه .

وأعتقد أن فكرة النبى الروحى هذه لها أثر بعيد فى تكوين عقائد الباطنية نظراً لمغالاتهم إلى حد اعتبارها أسمى وأعلى من البنوة الجسدانية الطبيعية وسأذكر ذلك فيما بعد تفصيلاً .

ويضيف الدكتور النشار ، أن ما سينيون لم ينسبه إلى هذا ، ولعله إن فعل ، لوضعه فى فرق السين ، غير أن ميموناً لم يعلن أنه حامل القرآن - كما ادعت الإسماعيلية فيما بعد ، ولا أنه سبب الشد والتلقين ، ولا أنه رسول أو نبى ، وإنما أعلن أنه حجة الإمام محمد بن إسماعيل ونائبه ، وداعيه .

ويضيف بقوله : وأخيراً - أن الصورة التى قدمتها مختلف الفرق لميمون القداح : أنه كان محدثاً شيعياً عند الإمامية ، حجة نائباً وستراً للإمام محمد بن إسماعيل عند الإسماعيلية ، ثنوياً ديصانياً عند أهل السنة والجماعة ، بل لقد ذهبوا إلى أن ميموناً القداح هو أبو شاكر ميمون الديصانى . أما الصورة المتكاملة له : أنه كان محدثاً - وراوياً ومولى لجعفر الصادق . أخذ الإمام واحتصنه واعتبره من آل البيت ولاء ، كما فعل جعفر مع أبى الخطاب ثم أن ميموناً كان من تلاميذ أبى الخطاب . وقد ارتبط ميمون بإسماعيل الابن الأكبر للإمام ، وكان للابن من الفضائل النفسية والروحية والعلمية ما جذب إليه مولى أبيه ، ثم جعله الإمام جعفر وصياً على حفيده ، ولما انتقل جعفر إلى جوار ربه ، نقل ميمون الإمامة

لمحمد بن إسماعيل ، وبدأ ينشر الدعوة له ، ثم انتقل معه من مكان إلى مكان ، وأخذ يضع أصول الدعوة محتملاً السجن والاضطهاد والتشريد .

ويلاحظ ، أنه لم يتعرض لهجمات الامامية كما تعرض أبو الخطاب الأسدى ، ولم يحاول الرجل تقويض دعائم الإسلام - كما ذهب مؤرخو العقائد الإسلامية من أهل السنة - « كما ذهب » - فلم يفعل ويعمل على وضع مذهب باطنى يخرج المسلم من إسلامه كلية ، وإنما كان يضع المذهب الإسماعيلى ، وفى المذهب - وهو يكافح السلطان نواح باطنية بلا شك ، ولم يكن يرمى إلى سلخ المسلمين باطنياً من العقيدة الإسلامية بل إلى سلخهم من عقيدتى أهل السنة والجماعة ومن عقيدة الإمامية . وقد لجأ إلى منهج التأويل . وكان محمد بن إسماعيل أيضاً من أئمة مذهب التأويل، ولعل كتابه الميزان إنما كان فى التأويل القرآنى .

ومات ميمون بعد عام ١٩٨ هـ فيما يرجح ، بعد وفاة محمد بن إسماعيل [(١)] .

* * *

ثانياً : خصائص الإمامة عند الاسماعيلية الباطنية :

ونظرية الإمامة عند الإسماعيلية تتميز بالمثالية المجردة التى حاولوا انزالها إلى أرض الواقع لتتمثل فى الخصائص التالية :

---

(١) د . على سامى النشار . نشأة الفكر ، جـ ٢ ، ص ٣٧٤ - ص ٣٧٥ .

١ - أن الإمامة واجبة على الله ، لأن العالم لا يستطيع أن يتحرك إلا وهو فى ظل إمام يدير أمره وقد أولوا فى ذلك العديد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة التى تؤكد على أن الله سبحانه وتعالى لا يترك الأرض دون إمام ولذلك فقد جعلوا الإمامة تبدأ من عهد آدم وقد جعلوا منه الإمام الأول على الأرض .

٢ - ومن الآيات التى أولوها للتدليل على وجوب تنصيب الإمام على الله - على سبيل المثال لا الحصر - قوله تعالى :

﴿ يقولون هل لنا من الأمر من شىء قل إن الأمر كله لله ﴾ (١) فهذه الآية تدل دلالة واضحة أن ليس للناس ولا للصحابة الحكم فى شئ ولما كانت الإمامة من أعظم الأمور التى تبنى عليها مصالح العباد الدينية والدنيوية فهى تندرج تحت لفظ (الأمر) المذكور فى الآية ويستدل الحلى بهذه الآية على أن الأمر بالنسبة للإمام كله لله فلا أمر له من تلقاء نفسه أو من سوانح خواطره ، ولا يتوافر ذلك إلا إذا كان الإمام منصباً من الله من جهة ومعصوماً من جهة أخرى وكذلك أمر المحكومين لله بمقتضى الآية ، فلو كان تنصيب الإمام من فعلهم لكانت جميع الأوامر والنواهى والأحكام الصادرة منه من فعلهم مما يتنافى مع مفهوم الآية الكريمة (٢) ولا يوافق الحسين المظفرى على هذا التأويل إذ يرى أنه لا ملازمة من تنصيب الإمام وبين أوامر الله ونواهيه إذ قد نصبت الأمة الإمام لحفظ الشرع والعمل وفقاً

---

(١) آل عمران : ١٤٥

(٢) الحلى : الألفين الفارق بين الصدق والمين ص ١٠٥

لأوامره ونواهيه [1] .

٣ - واستندوا أيضاً إلى الآية الكريمة ﴿ إنى جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين ﴾ [1] فالإمامة بمتقضى الآية عندهم عهد من عهود الله التى لا يتطرق اختيار الناس إليها مطلقاً إما إنها من عهد الله فلقوله ﴿ لا ينال عهدى ﴾ وإما إنها من اختياره فلقوله تعالى ﴿ إنى جاعلك للناس إماماً ﴾ ، الأمر الذى يثبت عدم جواز اختيار الناس للإمام ولقد اختار الله إبراهيم للإمامة بعد أن اختاره للنبوة ، ولما كان الإجماع قد انعقد على أن الاختيار للنبوة ... وقد أشار الله إلى ذلك فى أكثر من موضع كقوله تعالى : ﴿ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات ﴾ [3] ..... فالله أوحى إليهم فعل الخيرات وجعلهم أئمة للناس لهدايتهم ﴿ الذى إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ﴾ [4] .

والإمامة فى ذلك كله لها جانبها السياسى : إذ حينما سأل بنو إسرائيل نبيهم أن ﴿ أبعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله ﴾ قال لهم نبيهم : ﴿ إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا ﴾ [5] .

وهكذا اصطفاه الله عليهم وزاده بسطة فى العلم والجسم والله يؤتى ملكه من يشاء [6] . ويقول ابن المرتضى فى صحيفة الإمام السجاد زين العابدين « لم تخل الأرض منذ خلق الله آدم من حجة لله فيها ظاهر مشهور أو غائب مستور ولا تخلوا إلى أن تقوم الساعة من حجة لله فيها ، ولولا ذلك لم

---

(١) د . أحمد صبحى : نظرية الإمامة ص ٨١
(٢) البقرة : ١٢٤
(٣) الأنبياء : ٧٣
(٤) الحج : ٤١
(٥) البقرة : ٢٤٦ - ٢٤٧
(٦) د . أحمد صبحى : المصدر السابق ص ٨٢

يعبد الله ، ولما سئل كيف ينتفع الناس بإمام مستور ويكون حجة الله عليهم قال كما ينتفع الناس بالشمس إذ سترها السحاب [1] .

ثانياً : صفات الإمام :

وبما أن الإمامة من وجهة نظرهم تشريع إلهى فإنه قد وجب أن يكون للإمام صفات لا يتميز بها غيره وهذه الصفات هى :

١ - أن يكون من أحفاد إسماعيل بن جعفر الصادق وابنه محمد بن إسماعيل وقد ساقوا فى ذلك العديد من التأويلات لآيات القرآن . فقد أعلنت هذه الطائفة أن الله جعل لمحمد بن إسماعيل صفة آدم ومعناها الإباحة للمحارم وجميع ما خلق فى هذه الدنيا لقوله تعالى ﴿ فكلا منها رغداً حيث شئتما ﴾ وفى هذا إباحة للدنيا وإبطال التحريم ﴿ ولا تقربا هذه الشجرة ﴾ أى موسى بن جعفر وولده من بعده من أدعى منهم الإمامة ، ثم أن محمد بن إسماعيل هو خاتم النبيين عندهم [2] .

٢ - كما أولوا قوله تعالى : ﴿ وجعلها كلمة باقية فى عقبه ﴾ للتدليل على أن الإمامة لا تخرج من نسل محمد بن إسماعيل بن جعفر « والكلمة فى الآية تعنى الإمامة ولابد أن تكون فى الأعقاب دون غيرهم [3] وهكذا دللَّ الباطنية على أن الإمامة لا تخرج عن إسماعيل وعقبه من بعده .

---

(١) ابن المرتضى (الملقب بنور الدين) درر البحار المصطفى من بحار الأنوار ، طبع ايران سنة ١٣.١ هـ ، جـ ٣ ص ٢

(٢) د . على سامى النشار : نشأة الفكر / جـ ٢ ص ٣٨٣

(٣) د . محمد كامل حسن : طائفة الإسماعيلية - تاريخها - نظامها - عقائدها . الناشر : مكتبة النهضة المصرية بدون تاريخ ص ١٢٢

ثالثاً : علم الإمام :

جعلت الباطنية من الإمام عالماً بكل شئ فى السموات والأرض ، وعالماً بما كان وما سيكون لكى يضفوا عليه من القداسة ما يجعله أسمى مرتبة من النبيين عدا محمد ﷺ .

ومصدر علم الإمام عندهم هو العلم اللدنى الصادر عن الوحى والحدس والإلهام ، والله ضامن لصحة هذا العلم لأنه من لدنه ، وكل ما يحصل لغير المعصومين والأوصياء فكرا يحدث لهم حدساً أو بداهه وما يحصل للناس بالحواس يتم لهم بالشهود والقياس [1] .

وليس المقصود القياس العقلى وإنما الانتقال من الظاهر إلى الباطن وليس علمهم وفقاً على شرائع الدين وأحكامه وإنما شئون الدنيا كذلك غير أن الشريعة تصدر عنهم عن وحى ما يتعلق بمسائل الدنيا عن الهام وليس علمهم كسبياً لأن ذلك يحتاج إلى التعلم ولا فطرياً فحسب لأن ذلك وقفاً على اليد بهبات وإنما نظرى لدنى فإذا اختار الله عبداً واصطفاه واودع قلبه ينابيع الحكمة وألهمة العلم الهاماً فلا يعى بغيره فى جواب ولا يحتار فى وجه الصواب ، وإنما هو مؤيد مسدد موفق منهم قد آمن من الخطأ والذلل والعثار قال تعالى: ﴿ بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم ﴾[2] فكان الإمام الصادق يقرأ الآية ويشير بيده إلى صدره [3] .

والباطنية – كما قلنا – يجعلون علم الأئمة فى مرتبة تفوق فى بعض الأحيان الأنبياء . (فيما عدا محمدا ﷺ) ... وقد نسب إلى الباقر أنه سأل أحد أصحابه : ما تقول الشيعة فى على وموسى وعيسى ؟ فقال الشيعى : جعلت فداك وعن أى الحالات تسألنى ؟ قال : أسألك عن العلم

---

(١) د . أحمد صبحى : نظرية الإمامة ، ص ١٤٥ وما بعدها .

(٢) العنكبوت : ٤٩

(٣) الكلينى الكافى ، جـ ١ ص ٤٥

قال : هو والله أعلم منها ويبدو أن الشيعى قد أقر بذلك وهو غير مطمئن القلب فسأله الباقر : أليس يقولون إن لعلى والرسول الله من العلم ؟ قال : نعم ، ولكن لا يقدمون على أولى العزم من الرسل أحداً قال الباقر فخاصمهم بكتاب الله قال : وفى أى موضع منه ؟ قال الباقر يقول تعالى لموسى : ﴿ وكتبنا له فى الألواح من كل شىء ﴾ (الأعراف : ١٤٥) وقال لعيسى ﴿ ولا بين لكم بعض الذى تختلفون فيه ﴾ (الزخرف : ٦٣) بينما قال لمحمد ﴿ وجئنا بك شهيداً على هؤلاء ﴾ (النحل : ٨٩) كما قال فى نفس الآية ﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لك شىء ﴾ (١) .

وهكذا يفترق الإمام عن النبى من حيث العلم ولا مصدره وإنما يختلف عنه فى الوسيلة التى يصل إليه علم الله ، فانقطاع الوحى بعدم نزول الملائكة لا يعنى انقطاع نزوله من الله لأن الله سدد خطى الأئمة بروح من عنده قال تعالى : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب وما الإيمان ﴾ (٢) قال الصادق منذ نزل ذلك الروح على النبى ما صعد إلى السماء وهو فينا (٣) .

ولكن كيف انتقل العلم من الأنبياء إلى الأئمة ؟

لما كانت حلقة اتصال وراثة النور الإلهى مفقودة بين النبى وعلى من حيث إنها تنتقل فى الأصلاب الطاهرة من أب إلى ابن ، فإن النور فى عبد المطلب قد انقسم إلى قسمين ، ونسبوا إلى رسول الله القول : كنت أنا وعلى نوراً فى جبهة آدم وانتقلنا من الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام المطهرة الذكية حتى صرنا فى عبد المطلب فانقسم النور قسمين فسار قسم فى عبد

---

(١) المصدر السابق : ٥٦ ، وما بعدها .   (٢) الشورى : ٥٢

(٣) العاملى (محمد بن الحسن) : الفصول المهمة فى أصول الأئمة ، طبع القاهرة سنة ١٣٠٤هـ ، ص ١٥١

الله وقسم فى أبى طالب فخرجت من عبد الله وخرج على من أبى طالب وصدق الله ﴿ الذى خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وطهراً وكان ربك قديرا ﴾ وهكذا تتصل بهذه المادة النورانية سلسلة وجود الصفوة كما تكتمل سلسلة ميراث الأنبياء والأوصياء من علوم إلهيه [(١)] .

رابعاً : عصمة الإمام :

يعرف على بن فضل الله الجيلانى العصمة فيقول « العصمة قوة روحانية وموهبه فطرية مختصة بالنفوس القدسية لاستعدادها الذاتى لتحصل لها حقائق مشاهدة عقلية بقدر طاقتها على ما كان عليها ولا يحصل معها العصيان والسهو والنسيان وإن كان ممكناً لها لذاتها .

أما استعداد نفس المعصوم لتحصيل الحقائق فيفسره الجيلانى بذكر مراتب الموجودات من جماد ونبات وحيوان وإنسان .

ولما كانت أعلى مراتب كل سافل يتصل بما فوقه فان أعلى مراتب الإنسان متصل بالملائكة والروحانيات مرتبط بعالم الربانية بقوته الروحانية عن طريق تلقى الإلهامات وما تقتضيه من علوم يقينية شهودية ، وبذلك تكون الأفراد العالية من الإنسان معصومة ولا يتسنى ذلك إلا للقليل ، سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلاً يصف الجيلانى نفس المعصوم بأنها أشرف النفوس فطرة سائلة إلى محسنات الأشياء ومنصرفة عن قبائحها وذلك لإنصرافها لمشاهدة حقائق الأشياء تماماً كما تشاهد النفوس

---

(١) المصدر السابق ص ١٥٥

غير القدسية محسوساتها فالمشاهدات والاتصال بالروحانيات والتلذذ بها صارفة لها عن القبائح كلها فتكون معصومة عنها [1] .

هكذا عرف الجيلانى العصمة تلك التى يطلقها الباطنية على الأنبياء ، والأئمة منهم فهم يعتقدون بعصمة الأنبياء بوجه عام فى الأحكام وغيرها ولا تجوز فى حقهم ارتكاب الخطيئة صغيرة كانت أم كبيرة وهذا من الضروريات الأولية إذ لو جاز الخطأ عليهم لكان جائزاً بوجه عام من غير تقيد بنوع دون نوع ومن جملة الأخطاء الكذب . وإذا تمركزت هذه العقيدة فى أدمغتهم قلت الثقة به من نفوسهم ولم يمكنهم بعد امتثال أمره ونهيه ولازم هذا انتفاء فائدة التبعية وانتفاء فائدة تبليغ الأحكام للمكلفين ، فالعصمة إذا واجبه يحتمها الشرع ويقرها العقل [2] .

ولو رجعنا إلى القرآن الكريم لوجدناه يصرح بعصمة الأئمة يقول تعالى: ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً ﴾ فإن الرجس هو الكذب وهو منفى بنص الاية الشريفة إذ لا يجوز عليهم الكذب وبذلك تثبت لهم العصمة التى يدعيها لهم الباطنية ويتبقى شئ واحد وهو هل العصمة واجبة عليهم كالأنبياء أم لا ؟ والذى يقتضيه التحقيق هو وجوبها ذلك أن العلة فى احتياج الناس إلى الامام هو جواز الخطأ عليه وإذا كان الخطأ على الإمام جائزاً أيضاً لاحتاج إلى أمام غيره كما احتاجت إلى إمام لمشاركته لهم فى علة الاحتياج ويحتاج الثانى إلى الثالث وهكذا، ولازم ذلك التسلسل الذى هو معلوم البطلان ، إذ لزم من جراء ذلك المحال ،

---

(١) الجيلانى : توفيق التطبيق ص ١٦

(٢) محمد صادق السيد : الشيعة وفنون الإسلام ، مطبعة العرفان بصيدا سنة ١٣٣٤ هـ ، ص ١١٧

وجب عليه تعالى أن يعصمهم من الذلل كما فعل ذلك فى الأنبياء [1] ...

خامساً : تنظيم العالم فى ظل الإمام :

اتخذت الإسماعيلية من التأمل أساساً لفلسفتهم المذهبية فى نظام الكون والمخلوقات التى تحيط بالإنسان وتطبيق هذه النظم كلها على الدين واستفادوا فى ذلك بكل الآراء التى قال بها الفلاسفة وبكل الديانات أيضاً والعقائد القديمة ومزجوا ذلك كله بالدين الإسلامى فاستنبطوا بذلك عقيدة هى مزيج عجيب من كل الفلسفات وكل الديانات وأضافوا إلى ذلك كله من الدعاية بحيث جعلوا الدعاة من حدود الدين ، وذلك إمعاناً منهم فى إسباغ الفضائل على هؤلاء الدعاة الذين يبشرون بالأئمة وعقيدتهم المذهبية حتى يستطيع الداعى أن يوجه اتباع المذهب ، كيفما يشاء وأن يكون كلامه لهم من صميم المذهب فلا يحاجه أحداً ولا يخالفه إلا كل مارق عن المذهب ، وبذلك يسبغ شىء من التقديس على الداعى وعليه نستطيع أن نرتب كبار الدعاة الذين كانوا يلازمون مقر الإمامة على النحو الآتى :

١ - مرتبة باب الأبواب وهى أعلى المراتب وهى مرتبة سرية .

٢ - مرتبة الحجة .

٣ - مرتبة داعى البلاغ .

٤ - مرتبة داعى الدعاة أو الداعى المطلق وهى مرتبة ظاهرة [1] .

هذه مراتب الدعاة فى النظام الإسماعيلى وقد اجتهد الإسماعيليون أن لا يخلو بلدٌ من دعاتهم حتى أن المعز لدين الله الفاطمى قال « أن أكثر

---

(١) المصدر السابق ص ١١٨

(٢) محمد كامل حسين : طائفة الإسماعيلية ص ١٣١

الناس يجهلون أمرنا ولا يظنون إنا لا نعنى إلا بمن شاهدناه ، وكان بحضرتنا ، ولو كان ذلك لكنا قد ضيعنا من يبعد عنا وقد أوجب على جميع خلقه ولايتنا ومعرفتنا واتباع أمرنا والهجرة والسعى إلينا من قرب ومن بعد ولكننا للرأفة بهم ، ولما نرجوه من هدايتهم قد نصبنا بكل جزيرة لهم من يهديهم إلينا ويدلهم علينا [1] .

وبفضل هذا التنظيم انتشرت الدعوة الإسلامية فى بعض الأقاليم وبين كل الطبقات وقوى نفوذ الإسماعيلية فى بعض البلاد .

وقد نظم الإسماعيلية أسلوب الدعاية تنظيماً دقيقاً يطابق نظام دورة الفلك ، فقد جعلوا العالم ، الذى كان معروفاً فى عصرهم مثل السنة فالسنة مقسمة إلى إثنى عشر شهراً إذن فيجب أن يقسم العالم إلى إثنى عشر قسماً وسموا كل قسم جزيرة ولا نعلم إلى الآن الأساس الذى قسموا بمقتضاه العالم إلى هذه الجزر فإنهم جعلوا على كل جزيرة من هذه الجزر داعياً هو المسئول الأول عن الدعاية وكان يطلق على هذا الداعى لقب « داعى الدعاة » أو « حجة الجزيرة » والشهر ثلاثون يوماً - ولذلك كان لكل داعى جزيرة (ثلاثون) داعياً نقيباً لمساعدته فى نشر الدعوة وهم قوته التى يستعين بها فى مجابهة الخصوم وهم عيونه التى يعرف بها الأسرار الخاصة والعامة فكانوا بمثابة وزارئه ومستشارية فى كل ما يتعلق بجزيرته ..... واليوم مقسم إلى أربع وعشرين ساعة اثنى عشر بالليل ، واثنى عشر بالنهار ... فجعل الاسماعيلية لكل داعى نقيب أربعة وعشرين داعياً اثنى عشر داعياً ظاهراً كظهور الشمس بالنهار ، واثنى عشر داعياً محجوبا مستترا استتارة الشمس بالليل وعلى ذلك فبعملية أحصائية بسيطة نجد أن

---

(١) المصدر السابق ص ١٣١

عدد الدعاة الذين بثهم الاسماعيلية فى العالم ٨٦٤ داعياً ..... [١] .

فلا غرو أن أزعم أنهم أساتذه فى فن الدعاية فى العالم . حقيقة كان للمعتزلة دعاة ينادون بآرائهم ، وكان للشيعة الاثنى عشرية دعاة يبشرون للمهدى المنتظر من أهل بيت النبى ﷺ ... وكان للزيدية دعاة أيضاً ... ولكن دعاة هذه الفرق لم ينظموا أنفسهم التنظيم الدقيق الذى كان للإسماعيلية ولذلك لم يكن لهذه الفرق من التاريخ ماللإسماعيلية . وذلك بفضل الدعاية وتنظيمها ... [٢] ...

ومن شأن دعاتهم أن يتنقلوا فى الأرض ولايطيلوا الإقامة فى مكان واحد لكيلا يكون مملولاً مستثقلاً ... وليكون أبعد من تمكين أحدٌ من كشف بواطن أمره ورأوا أن من أولى الأمور به أن يتعاطى من حفظ ألفاظ التوراة والأناجيل وكتب الأنبياء طرفات ، وأن يكون يكثر من معرفة اللغات ، وأن يتحلى بطرق من الهندسة ، ومعانى من تقاويم الفلاسفة وأن يعرف فن ظاهر أهل الديانات المختلفة ويريهم فى بعض أحواله أن اليهودية والنصرانية والمجوسية والاسلام كلها معان متقاربة ودعوة واحدة وإن البلاء الذى أوهم الجهال اختلافها اتكالهم على ظاهرها دون باطنها وجهلهم بمعانيها وأوضاعها وأن الآفه جاءت فى ذلك من الناقلين لها وعملهم بغير ما توجبه حقائقها وأن الناس لو عرفوا بواطن ذلك لاستراحوا واتفقوا وتآلفوا ما اختلفوا .... [٣] .

---

(١) المصدر السابق ص ١٣٤

(٢) المصدر السابق ص ١٣٥

(٣) محمد بنى مالك اليمانى - كشف أسرار الباطنيه وأخبار القرامطة ، طبع القاهرة بدون تاريخ ص ٨

سادساً : الباطنية ونظام الحكم الثيوقراطى :

إن هذه الفرقة إنما قد غالت فى تقديس بل فى تأليه الأئمة مع نظام الحكم الثيوقراطى الذى كان معروفاً فى العصور القديمة عند قدماء المصريين والبابليين فى الحضارتين اليونانية والرومانية حيث كان ينظر إلى الملوك نظرة دينية (لاهوتية) إلى جانب النظرة الدنيوية ، وكانت الحكومات فى نفس الوقت حكومات إلهية تجعل من الملك إلهاً مقدساً تفوض له كافة السلطات المطلقة دون منازعة على أية صورة كانت مهما كان هذا الملك ظالماً أو شريراً عاتياً أو ماجناً خليعاً فالحكم له بأمر الآلهة التى يعبدها الناس ومن هذه الآلهة كان ملكهم وقد انتقلت هذه الآراء القديمة إلى بعض من دان بالإسلام من الشعوب التى عرفت هذه النظم الثيوقراطية ، وتغلبت هذه الآراء القديمة عندهم على الرغم مما جاء به الإسلام وما ورد فى القرآن عن النبى ﷺ نفسه (وما أنا إلا بشر مثلكم) ولكن تغلغل هذه الآراء القديمة فى نفوسهم كان أكبر أثراً من تغلغل الدين الإسلامى الجديد [1] ومن منطلق هذه الفكرة اعتقدت الباطنية فى مذهبها (بوحدة الأديان منذ آدم عليه السلام) .

ولذلك فقد احتوت الشيعة الباطنية على أفراد ينتمون إلى أديان مختلفة بمعتقدات عدة وذلك لأنهم كانوا بالإضافة إلى اعتقادهم « بوحدة الأديان »

---

(١) د . محمد كامل حسين - طائفة الاسماعيلية ص ٥ ، ٦

(٢) عارف تامر الإمام فى الإسلام ، ص ١٤٣ ومابعدها ، وأيضاً د . على سامى النشار الفكر الفلسفى ، ص ٢٨٦

يحاولون ضم أكبر عدد ممكن من الأنصار لتدعيم قوتهم والتعجيل بالقضاء على الدولة العباسية ، واسترداد الخلافة التى أخذت منهم اغتصاباً هكذا كان من المحتم أن تكون فرقتهم مطاردة من الخلفاء العباسيين أولئك الذين لم يدخروا وسعاً فى سبيل القضاء على حركة الاسماعيلية بخاصة ، والشيعة بعامة .

سابعاً : - مراتب الأئمة :

١ - الإمام المقيم :

هو الإمام الذى يقيم الرسول الناطق ويعلمه ويربيه ويدرجه فى مراتب رسالة النطق وينعم عليه بالامدادت وأحياناً يطلقون عليه اسم « رب الوقت » و « صاحب العصر » ، وتعتبر هذه المرتبة أعلى مراتب الإمامة وأرفعها ، أكثرها دقة وسرية .

٢ - الإمام الأساسى :

هو الذى يرافق الناطق فى كافة مراحل حياته ويكون ساعده الأيمن وأمين سره ، والقائم بأعمال الرسالة الكبرى والمنفذ للأوامر العليا فمنه يتسلسل الأئمة المستقرون فى الأدوار الزمنية ، وهو المسئول عن شئون الدعوة الباطنية القائمة على الطبقة الخاصة ممن عرفوا التأويل « ووصلوا إلى العلوم الإلهية العليا » .

٣ - الإمام المتم :

هو الذى يتم أداء الرسالة فى نهاية الدور ، والدور كان يقوم به أصلاً

سبعة من الأئمة فالإمام المتم يكون سابعهم ومتماً لرسالة الدور وإن قوته تكون معاونة لقوة الأئمة الستة الذين سبقوه فى الدور نفسه بمجموعهم ومن جهة ثانية يطلق عليه اسم « ناطق الدور » أيضاً أى أن وجوده يشبه وجود الناطق بالنسبة للأدوار .. أما الإمام الذى يأتى بعده فيكون قائماً بدور جديد ومؤسساً لبنيان حديث .

٤ - الإمام المستقر :

هو .. الذى يملك صلاحية توريث الإمامة لولده ، كما أنه صاحب النص على الإمام الذى يأتى بعده ويسمونه أيضاً الإمام بجوهر ، والمتسلم شئون الإمامة بعد الناطق مباشرة ، والقائم بإعداد الإمامة .

٥ - الإمام المستودع :

هو الذى يتسلم شئون الإمامة فى الظروف والأدوار الإستثنائية وهو الذى يقوم بمهامه نيابة عن الإمام المستقر بنفس الصلاحيات المستقرة للإمام المستقر ، ومن الواضح أنه لا يستطيع أن يورث الإمامة لأحد من ولده كما أنهم يطلقون عليه (نائب غيبة) .

هكذا كانت عقائد الباطنية الأساسية التى تطورت فيما بعد فى ظل الدولة الفاطمية التى نشأت كنتاج لهذه الحركة الشيعية الباطنية فى المغرب على يد أبى عبد الله الشيعى - حيث مهد الإمام الباطن عبيد الله المهدى أول خليفة للدولة الفاطمية .

* * *

ثامناً - الأساس الفلسفى لفكرة الإمامة عند الإسماعيلية الباطنية :

يفلسف الإسماعيلية بعد ذلك فكرتهم فى الإمامة فيمزجون بينها وبين آرائهم فى تفسير الوجود فبعد أن وصفوا إمامهم بالصفات السابقة قالوا إن العالم لا يخلو من إمام ، وعلى ذلك ، فالإمامة لديهم لم تكن بادئة بعلى بن أبى طالب ، بل أنها كانت تمتد إلى بداية نشأة العالم ، وما على إلا بداية دور من الأدوار ، ولذلك فالإمامة لديهم تبدأ منذ نشأة العالم وتذهب الإسماعيلية إلى أن الله قديم وقبل الأزل وصاحب مصدر الأولية بالترتيب لأن الحد الأول انبثقت عنه ، والموجود الأول فاضل منه ، وهو مبدع المبدعات ومعل العلل ، وبارى البرايا ، والدائم الموجود ، والفرد المعروف بفرديته ووجدانيته ، وصاحب فعل الإيجاد الأول للعدد الأول الذى هو أصل الإعداد كما أن العقل هو أصل الموجودات ، والناطق أصل عالم الدين ، ويضاف إلى كل هذا أنه لا ينال بصفة من الصفات ، وأنه ليس جسماً ولا هو فى جسم ولا يعقل ذاته عاقل ولا يحس به محس وهو ليس بصورة ولا مادة [١] .

أما عن العقل الأول الذى يمثل الإمامة فهو أول حد من حدود الموجودات ، فهو المنبعث الأول الواحد بترتيب العدد وأول خلق ظهر من أمر الله تعالى وسمى « العقل » لأن المبدع حصر فى جوهره صور المبدعات كلها كى لا يذهب شئ منها ، ويقال للعقل أيضاً « القلم » لأن بالقلم تظهر نفوس الخلقة من الإبتداء إلى الإنتهاء ، ومن العقل تنفطر الحروف الجامعة للكلام ، ويقال للعقل « العرش » ومعناه أن إقرار معرفة التوحيد هو ما تقرر فى العقل من الإثبات والنفى ، وبالعقل تعرف جلالة الله وعصمته عن سمات بريته ، كذلك العرش فهو مقر لمن جلس عليه وبجلوسه عليه تعرف جلالته

---

(١) عارف تامر . الإمامة فى الإسلام ص ٦٧ .

عمن هو منحها دونه ويقال للعقل « الأول » ومعناه أنه مصدر الأولية التى ظهرت منها المخلوقات ويقال للعقل « السابق » ومعناه أنه سبق لقبول آثار الكلمة قبل سائر الحدود لقربه منها واتحاده بها وهي والعلم والأمر بمعنى واحد ، وقد يجوز أن فعل العقل قد سبق قوته ولم توجد هذه الفضيلة فى موجود سواه ، لأن جميع الحدود من دونه قواتهم سابقة لأفعالهم ، وهذه الفضيلة للعقل خاصة ليكون بها تاماً كاملاً ، وإن العقل هو الأول فى الوجود والسابق فى الوجود ، والتام فى الوجود والتمام فى الوجود والحد الأول والمبدع الأول والترتيب أولاً فى الوجود على طريق الإبداع كاملاً أزلياً فهو الملك المقرب والاسم الأعظم لا أله إلا من أبدعه ، كما وأنه أداة باطنة فى الإنسان فيه يبصر ما يبطن كما أن العين أداة ظاهرة فيها يبصر ما يظهر ، وهو كالواحد بين الأعداد ، من حيث تعدد النسب والإضافات ، فكما أن الواحد يتعدد بالنسبة إلى غيره من الأعداد ويتكثر بالإضافة إلى غيره من الأعداد ، ويتكثر مرة أخري أيضاً إلى غيره من هذه الأعداد فإنه يبقى مع ذلك واحداً دائماً ، فكذلك الموجود الأول تتعدد نسبة وتتكثر إضافاته إلى ما سواه من الموجودات ، ولكنه يظل مع ذلك واحداً أبداً ، وللعقل وظيفتان وظيفة التفكير فى البارئ عز وجل ، ووظيفة التفكير فى نفسه ومن العقل انبثقت نفس العالم ، ولها ميلان علواً إلى العقل وسفلياً إلى عالم الطبيعة ، وهناك من يطلق على الموجود الأول اسم المبدع الأول أو العقل الأول والمحرك الأول باعتباره أصلاً لجميع المتحركات فى عالمى العقل والجسم ، وأن الحدود وجدت عن بعضها البعض بترتيب بديع ضمن العقل النفس ومن الهيولى الصورة ومن الصورة وجدت السموات والأرض وحركاتهما [1].

---

(١) د . أبو الوفا التفتازانى : علم الكلام وبعض مشكلاته ، طبع البلك سنة ١٩٦٦ ص٩١ .

(٢) المصدر السابق : ص ٩٢

ثم أن العقل الأول مركز لعالم العقول ، والعقل الفعال مركز لعالم الأجسام العالية الثابتة إلى الأجسام المستحيلة المسماه عالم الكون والفساد ، والعقل الأول مبدع أبدعه البارىء ، فهو الإبداع الأول والخلق الأكمل وإنه فعل فعله البارىء بذاته ، وأوجده بكلمته وقدرته التى قدر فيها وجوده ، والعقل أقرب الأشياء من باريه جل اسمه ، وهو الإبداع الأول والخلق الأكمل وأنه فعل فعله البارى بذاته وأوجده بكلمته وقدرته التى قدر فيها وجوده ، والعقل أقرب الأشياء من باريه جل اسمه ، وهو الفاعل لما دونه بأمره وفى المعلول توجد العلة ، ويضاف إلى كل ذلك بأن العقل هو العلة الأولى لوجود ما سواها من الموجودات ، والمبدأ الأول لحركة جميع المتحركات فى عالمى العقل والجسم ، فهو دائم الإشراق فى الأدوار يُقبل ما يتصل به من فيض المبدع وأن نوره كنور الشمس فى المثال وكمشيئة المبدع وحكمته النافذة فى البرية التى أوجبت أن يفيض منه كثرة الأعداد التى تظهر القدرة ، والمبدع الأول هو عمله الموجود والموجودات الكائنة ، كما أن الواحد هو عمله الإعداد جميعها . وأن الإنسان مكون من كثيف ظاهر ومن لطيف باطن ، فالكثيف الظاهر ينقسم إلى عناصر الحياة الأربعة التى هى التراب والهواء والنار والماء ، وهناك شئ لطيف باطن هو العقل ، وقد أطلق على النفس الناطقة النفس الكلية ، وعلى العقل الكلى أيضاً ، لأن العقول الجزئية التى فى الإنسان منسوبة إلى العقل الكلى ، والنفس الكلية فى عالم العقل وهو الباطن اللطيف ، وأن العقل سابق فى الوجود على كل الحدود ، كما أن النفس به لاحقة ثم أن الهيولى سابقة والطبيعة لاحقة تشوقت إلى الصورة وهيولاها كتشوقها إلى لطائفها إذ بها كمالها وتمامها ، والهيولى الأولى مشتاقة إلى النفس وما تقبله من فيضها [1] .

---

(١) المصدر السابق : ص ٦٩٣ .

أما النفس فهى الخلق الثانى المنبثق من الخلق الأول ، وإنما سميت نفساً لأنها تتنفس دائماً للاستفادة ليكون بتواتر تنفسها قوام الخلقة ويقال للنفس « اللوح » ومعناه أن الذى انفطر من العقل من أنوار الكلمة يتسطر فى النفس ، ومن النفس يتصل بجريانها المنبثة فيها على مقدار صفائها ولطافتها ، ويقال للنفس « الملك » ومعنى ذلك أن النفس هى ملك العقل وقنينته لأن بالنفس ظهرت فضيلة العقل كما أن بالملك تظهر فضيلة الملك، ويقال للنفس « الثانى » ومعناه أنها الحال الثانى لجميع المخلوقين ومحافظتهم أشياءهم إنما تفضيل النفس بين كل شئ ليكون للسلوك وللمنطق عبارة ، ويقال للنفس « التالى » ومعناه أن الذى يتلو العقل فى باب قول آثار الكلمة إنما هى النفس ويجوز أن تتلو النفس بقوتها العقل بفعله .

ويقال للنفس القدر ، ومعناه أن الذى يتحد بالنفس من فوائد العقل فإن التقدير والتحديد محيطان به ، ويقال للنفس الصورة ، ومعناه أن النفس تستفيد من أنوار العقل وضيائه ، وإنها متى همت أن تلحق به لتنزل منزلته محق نورها كما أن القمر يستفيد نوره من الشمس ، وإذا اجتمع مع الشمس فى المنزلة محقت أنوارها نوره ، ويقال للعقل والنفس بكلمة واحدة - « الأصلان » ومعناه أن العقل والنفس مرجع الأشياء سواء أكان روحياً أم جسمانياً ، أما متى يكون اتصال النفس الكلية بالإنسان ؟ ومتى يكون معادها ؟ فالجواب هو أن النفس النامية هى الحياة الكامنة فى كل شئ من موجودات عالم الكون والفساد ، وهى أن النفس النامية هى الحياة الكامنة فى كل شئ من موجودات عالم الكون والفساد ، وهى التى تسمى الحياة الهيولانية ويعنى أنها موجودة فى كل هيولى طويل عريض عميق وهى تنسل فى الأبخرة الصاعدة من الماء والأرض إلى الهواء ، ثم يمازجها قسط من الهواء وقسط من النار ، وتصير غيوماً ، ثم تنحل مطراً ، فإذا انعقد

من ذلك المطر معادن كانت تلك الحياة ، وهى التى تسمى النامية والكامنة فى تلك المعادن .

إن الإسماعيلية يقولون ، بأن العقل اسم المبدع الأول ، والعقل الأول والمحرك الأول باعتباره أصلاً لجميع المتحركات فى عالمى الجسم والعقل ، وأن الحدود وجدت عن بعضها البعض بترتيب منه .

ويقولون ، بأن الإنسان مكون من كثيف ظاهر ومن لطيف باطن ، فالكثيف الظاهر ينقسم إلى عناصر الحياة الأربعة ، التراب والهواء والنار والماء ، وهناك شئ لطيف باطن هو العقل ، وقد أطلق على النفس الناطقة الكلية ، وعلى العقل الكلى لأن العقول الجزئية والنفوس الجزئية التئ فى الإنسان منسوبة إلى العقل الكلى والنفس الكلية فى عالم العقل وهو الباطن اللطيف .

ثم أن جسم العالم بأسره يسمى الجسم الكلى ، وأن النفس الكلية هى نفس العالم بأسرها ، وأن العقل الكلى هو القوة الإلهية المؤيدة للنفس الكلية ، وأن الطبيعة هى قوة النفس الكلية السارية فى جميع الأجسام المحركة المدبرة لها . وأن الأجسام البسيطة هى الكواكب والأفلاك البسيطة هى قوى النفس الكلية المحركة والمدبرة لهذه الأجسام وأن الأجسام المولدة هى الحيوان والمعادن والنبات [١] .

وهناك رأى مشابه للرأى السابق عرضه أحد الدعاة الإسماعيليين وهو « حاتم بن عمران بن زهرة المتوفى عام ٤٩٧ هـ » « فى رسالة الأصول والأحكام » . يقول :

« كان الله ولا شئ معه » وهذا الأصل مأخوذ من الحديث كان الله ولا

---

(١) عارف تامر ، الإمامة فى الإسلام ص ٦٩ وما بعدها . إلى ص ٧٤ .

شيء معه ثم أوجد الموجود الأول وهو العقل أو القلم . وتستند الإسماعيلية هنا على الحديث الفلسفي « أول ما خلق الله العقل ، فقال له أقبل ، فأقبل ، وقال له أدبر فأدبر إلخ .. وهذا الموجود الأول - وهو ما يسميه الحكماء بالعقل أو القلم هو المبادىء العقلية أو القوة القابلة للطائف المبروزة المنبثة دفعة واحدة فيضاً ثم أوجد من العقل أثراً منفعلاً هي النفس الكلية أو نفس العالم ويسميها الإسماعيلية باللوح ، فأثرت النفس في الهيولى بقوالبها الإبداعية وجواهرها العقلية صور الأشياء الطبيعة والجسمانية ، فظهرت الأفلاك والعناصر والأرض والسماء في أربعة وعشرين ساعة بحركة كلية - وتناهت - أي انتهت - بعد ظهورها . أو بمعنى أدق لم يعد خلق جديد . ثم أن لكل جنس من الحيوان صورة روحانية تظهر وجودها في الأجسام الهيولانية . ودارت الأفلاك واقترنت المدبرات فنزلت الأمطار وتصاعدت البخارات ، فأثار السحاب باختلاف الإستقصات « العناصر الأربعة » وأقزاج الأمهات (الأصول) فأمطرت الأرض ماء ، ثم - أخرجت جثث الحيوان والبشر جميعا وكل ما ظهر في العالم من الكثيف واللطيف والمركب وتستند الإسماعيلية في هذا إلى قول الله ﴿ والله أنبتكم في الأرض نباتاً ﴾ أي بظهور الأجساد التي هي من غير نطفة والأرواح بالقوة الإلهية المتكونة بالعالم الإلهي المعتدل الشريف .

ويقولون : أما أول بدء الكون فهو عرش الرحمن على الماء ، وقد تصاعد البخار وظهر الدخان ، فخلق من طبعه السموات والكواكب ، ومن أفعال هذه الكواكب خلق الأرض والمركبات . وتستند الإسماعيلية إلى قول الله ﴿ ثم استوى إلى السماء وهي دخان ، فقال لها وللأرض أئتيا طوعاً أو كرهاً ، قالتا أتينا طائعين ﴾ .

ويقولون وأوجد الله الخلق دفعة واحدة ، وأظهر ما في القوة إلى الفعل

فعادت النفس الناطقة إلى أسبابها التى لا تفسد ولا تموت ، أما النفس البهيمية ، فقد جذبتها وغلبت عليها اللذة الأرضية ، فإذا تخلصت من هذه اللذة أرتقت إلى العالم الشريف - عالم العقل واستقرت . ولحقت بعنصرها الأعظم الذى منه بدت ، وفارقت الكدورات والظلمات ، وصارت صورة لطيفة - دراكة ذات أنوار مضيئة [١] .

أما بدأ الأوائل فى العالم فستة (١) العقل مع الدهر (٢) النفس مع الزمان (٣) الهيولى مع الأركان (٤) الطبيعة مع الأجسام . ويقابل هذه الأوائل الأصلان العليان المنبعثان وهما (٥) الكلمة (٦) والأمر . فهناك إذن ستة أوائل من عالم الربوبية ويقابلهم من البشر خلق ظاهرون أى يتملكون القوة ، الإلهية فى كل عصر وزمان ، يخرجون من البهيمة وبحر الندم . ويسميهم الإسماعيلية الملائكة - وهم على الترتيب . أناس عالمون، وأمناء مقربون ، ورسل مصطفون ، وخيرة روحانيون ، وأملاك مرسلون ، وعباد مكرمون ، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون وقد أخبر عنهم الله ﴿ وما منا إلا وله مقام معلوم ﴾ أو كما قال تعالى ﴿ ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض ﴾ ثم خلق الله الأرض فى ستة أيام ، وخلق السابع يوم التمام « ودل عليه بخمس حدود علوية ، وأصلين بهما تم الوجود » ثم خلق الله لهذه الأرضين والسموات أنبياء لهم مقامات وظهور فى الأزمنة والأدوار إلى تمام الميقات .. ثم جعل الشمس والقمر دليلين على هذه الأرضين ، منهما أبواً هذا العوالم . وهما رمزان لمحمد ﷺ وعلى وقد قال الرسول لعلى « أنا وأنت يا على أبوا هذه الأئمة وعلى عائقنا لعنه الله » [٢] .

---

(١) د . على سامى النشار ، نشأة الفكر جـ ٢ ص ٤٠٩ ، وما بعدها .

(٢) ابن زهرة : الأصول والأحكام ص ١٠٣

فالشمس - أى محمد - هو الدليل على النور ، يخرج منه التأثير لعلى ، فيقبل القمر النير من الشمس . أى يقبل على النور من محمد ، وهنا نجد أيضاً علياً العرجون القديم فى دوراته وحركاته .

ولما ابتدأ الأمر ، فاض على عالم العقل بأمر الله ، وفاض العقل على عالم النفس - بأنواره ، وفاضت النفس على من دونها فامتلأ عالمها من فيض العقل الممتلىء من فيض الله ، فأفاضت أقطار السموات بالسموات ، وبدأت الحركات من الحركات والمدبرات من الأوامر ، فقبلت فيض الأمر بما دونه من عالم الكون والفساد حتى ظهر الإنسان [1] .

يقول محمد حسن الأعظمى [2] :

إن الله تعالى - الذى لا تتجاسر نحوه الخواطر ، ولا تسمو إليه الأوهام والضمائر - أبدع عالم الإبداع المكنى عنه بعالم الأمر ، وعالم العقل ، وعالم القدس ، وعالم الصفاء ، وعالم اللطافة ، والعالم الروحانى - جميعاً معاً دفعة واحدة ، من غير شئ تقدمهم ، فيكون لهم هيولى أولى (أى أنها ليست كالعالم الجرمى) ولا مع شىء صحبهم فيكون مماثلاً لهم ومشاكلاً ، ولا على شئ أقلهم فيكون لهم مكاناً أول . واختراعهم عالم وجود من عدم غير موجود ، تفضلاً منه وجوداً ، إذ من شيمة الكريم القادر التفضل ، ومن شيمة العزيز العليم الجود والتطول ، لا محتاجاً إليهم ، ولا عابثاً بهم إذ هو متعال متكبر عن ذلك . أوجدهم أشباحاً صورية محضة نورانية ذوات قامات ألفية كالقامات الإنسانية البشرية مباثنة لأنفسها الهيولانية وأجسامها اللحمية الدموية إذ هى كثافة ظلمانية، وتلك لطائف روحانية قدسية ، فأوجد تلك الأشباح النورانية متساوية فى الكمال الأول

---

(١) د . النشار . نشأة الفكر جـ ٢ ص ٤١١ - ص ٤١٢

(٢) الحقائق الحنفية فى الشيعة الفاطمية والإثنى عشرية ، ص ١١٧ .

الذى هو الوجود والحياة والقوة والقدرة لا تخالف فيها ولا تفاضل ولا تباين فيها ولا تمايل فيما دق وجل ، وكثر وقل ، - عدلاً منه عز وجل ، إذ العادل يتساوى عدله ، والفاضل يعم فضله ، كما أخبر الكتاب الكريم ، من قوله العلى العظيم ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾ فنظر (الناظر : هو العقل) بذاته إلى ذاته وإلى أبناء جنسه ، كما نظر الأول فعلم أن له ولهم مبدعاً بخلافهم ، فنفى عن ذاته وعنهم الإلهية وأثبتها له ، وسبح العقل الأول وقدسه إذا كان سابقاً عليه إلى توحيد مبدعه وتنزيهه وتجريده واعترف بسبقه وطوله وشرفه على أبناء جنسه ، وفضله - فواصلته ، مؤداه (أى امداداته) وبركاته وتأييداته ولحظاته ، واتصل به عند ذلك النور الإلهى والعلم المتناهى فبلغ به الكمال الثانى ، وصار عقلاً أزلياً تاماً كاملاً معصوماً فاضلاً لا فرق بينه وبين الأول (أى العقل الأول) إلا برتبة السبق وكونه انبعاثاً ، والأول ابداعاً ، والإبداع لا كالانبعاث كما قال الأستاذ العالم الشيعى حميد الدين فى كتابه (راحة العقل) : ولو كانت كيفية الإبداع لكيفية الانبعاث ، لكان الابداع انبعاثاً ، والانبعاث ابداعاً ، لأن العقل الأول هجم بذاته على توحيد مبدعه وتنزيهه وتسبيحه وتقديسه مبتدعاً ذلك من ذاته لذاته ، بذاته من غير أول تقدم عليه ولا تسابق سبقه إلى ذلك العقل الذى به سما على أبناء جنسه وعلا عليهم واستحق جميع الأسماء الشريفة التى لم تكن لغيره ، وهى الإبداع والمبدع الأول ، والوجود والموجود الأول ، والحقيقة والحق الأول ، والوحدة والواحد الأول ، والتمام الأول ، والكمال والكمال الأول ، والأزل والأزلى الأول ، والعصمة والمعتصم الأول ، ومدهر الدهور والدهر الأول » [1] .

---

(١) محمد حسن الأعظمى ، الحقائق الخفية عن الشيعة الفاطمية والإثنى عشرية ، ص ١١٧ وما بعدها .

ثم أن هذا الهيكل النورانى يرسم باللاهوت ، وهو معنى الإمامة الغائبة عن جميع الخلق إلا من احتضنه الله برحمة منه وهو الحجاب الإلهى ، وهو العقل الذى ذكره أمير المؤمنين لسائله حيث قال يا مولاى : فإذا كانت النفس الناطقة من الجواهر ، والنفس الكلية من الجواهر ، فيما العقل فى ذاته ؟ قال : جوهر إدراك للأشياء كلها ، عالم بالشئ قبل كونه ، فطوبى لمن عرف الرموز النبوية والأمثال الإلهية ليقوم بمعرفة صورته الدينية ويكمل للإنسانية الأبدية ، فرمزه فى ذلك لكون الإمام قائماً فى عالم الدين مقام العقل العاشر فى عالم الكون والفساد ، ومقام العقل الأول فى عالمه ، وأما جسمه فيوسم بالغلاف والناسوت والمثل والشبه ، وله من الشرف والفضل واللطافة والتجوهر - ما لا مزيد فوقه إلا هيكله النورانى ، فإذا وقعت عليه الأبصار عكسها شعاعة كمعكس عن الشمس بالأبصار [١] .

يلاحظ مما سبق أن هذه النظرية فى الإمامة هى نظرية امتزجت فيها المذاهب الفلسفية التى أختلطت بآيات القرآن ، والتى أولوها حسب أهوائهم لتتلائم مع هذه النظرية . والحقيقة ، أنه من الواضح تأثير الأفلاطونية والأفلاطونية المحدثة ، تلك التى امتزجت بآراء مشائية ارسطية والتى تلونت بالغنوصيات المسيحية واليهودية ، كل هذا المزيج العجيب من المذاهب كون منه الباطنية يوتوبيا متكاملة ، مثالية مجردة ، ولكن كان لابد من أن تنزل تلك النظرية المثالية من عليائها إلى أرض الواقع لتطبيقها ، فإن امتزاج الثقافات الذى اختلط بالاضطهاد قد تمخضا معاً عن وجود فرقة الباطنية بخاصة ، والشيعة بعامة .

---

(١) مجلة دراسات فى الإسلام ، عن كتاب الحقائق الخفية ص ٥٤

ولكى يتحقق ذلك ، قرر الباطنية أن العالم لم يخلو من إمام قسط منذ عهد آدم ... وقد جر عليهم هذا الأمر الوقوع فى التناقص بين المثال والواقع ، مما أدى إلى ظهور عدة مشكلات مثل : هل الإمامة تنتقل من الأب إلى الابن ، أم من الأخ إلى أخيه ، أم من ابن العم إلى ابن عمه أو العكس ؟ وهل كان الأئمة منذ محمد بن إسماعيل جعفر هم من أعقابه حقاً ، إذ أنهم كانوا مستخفين هرباً مما يحيق بهم من جور العباسيين ، إذ اعتبروا المرحلة التى بدأت بمحمد بن إسماعيل ، وانتهت بعبيد الله المهدى ، وهى مرحلة استتار الأئمة ، وهذه أيضاً أدت إلى الاختلاف فى تحديد الأئمة المستورين ، ووضع الباطنية لكل هذه المشكلات حلولاً ... فلكى لا يخلو الزمان من إمام ، قرروا أن الإمام الأول كان آدم وبه بدأت الإمامة التى يعرض لها الشهرستانى فى صورها المختلفة من حيث أدوارها ، ومواقف الأئمة والأنبياء وتحديد كل منهم ، فيقول : -

ينبغى أن يكون ثمة عقل ونفس ، أما العقل فهو عقل شخص هو كل ، أما حكم هذا الشخص إذا ما حاولنا أن نضعه فى لغة أرضية نفهمها فهو حكم الشخص الكامل البالغ ، هو الناطق ، وأسماه أهل الشريعة النبى ، أما النفس فهى نفس مشخصة ، هى كل أيضاً ، حكمها هو حكم الطفل الناقص الذى يصبو إلى الكمال ، أو حكم النطفة التى تتجه إلى النضج والتمام ، وأسماه الباطنية الأساس ، وهو ما يقابل عند جمهور الشيعة الوصى ، فالناطق إذن ، والأساس فى العالم الأرضى ، يقابلان العقل والنفس فى العالم العلوى ، وإذا كانت الأفلاك والطبائع تحركت بحركة من النفس ، وبالتالى من العقل كذلك تحركت النفوس الجزئية وأشخاصها الجسمانية بفعل الناطق والوصى بواسطة الشرائع فى آنات معينة دائرة

على سبعة سبعة حتى تنتهى إلى الدور الأخير إنما تعود النفس الجزئية بواسطة الشرائع التى أظهرتها ، ثم انحلت عنها ، طالما قاربت الكمال ، فتعود مرة أخرى إلى النفس الكلية ، كذلك هذه الحركات الفلكية الطبيعة إنما تعود كثرتها بعد إلى الوحدة ، كانت غايتها بلوغ النفس إلى حال كمالها بحركة شوق إلى الاتصال بالعقل واتحادها به ووصولها أعلى مرتبة كونية ، إلى العقل بالفعل ، فإذا ما أتمت الحركات الفلكية دوراتها السبعة الأخيرة ، وقام آخر ناطق ، وآخر وصى ، بتحريك النفوس حركتها الأخيرة ، عادت النفس عقلاً بالفعل وذلك هو القيمة الكبرى فتنحل تراكيب الأفلاك والعناصر والمركبات ، وتتناثر الكواكب وتبدل الأرض غير الأرض ، وتطوى السماء كطى السجل للكتاب المرقم فيه ، وهنا يبدأ الحساب ، ويتميز الخير من الشر ، وتتصل جزئيات الحق بالفعل الكلى ، وجزئيات الباطل بالشيطان المبطل (١) .

وتعود الحركة سكوناً ، وتعود الكثرة وحدة ، ولم يعد إلا العقل الفعال يتأمل ذاته فى نعيم أبدى سر مدى ، وهنا الكمال من وقت الحركة إلى السكون هو المبدأ ومن وقت السكون إلى ما لا نهاية له هو الكمال (٢) .

وقد أطلق فخر الدين الرازى على الباطنية السبعية ومذهبهم : أن الدور التام سبعة ، بدليل أن السموات والأرضين سبع ، وأيام الأسبوع سبع ، والأعضاء سبع ، والدور التام للأنبياء سبعة ، فالأول آدم ووصية شيث ، والثانى نوح ووصية سام ، والثالث إبراهيم ووصية إسماعيل واسحق،

(١) الشهرستانى : الملل والنحل جـ ٢٣٧ .

(٢) الشهرستانى : الملل والنحل جـ ١ ص ٢٣٨ .

والرابع موسى ووصية هارون ، والخامس عيسى ووصية شمعون ، والسادس محمد ﷺ ووصية على . والإمام الأول على ، والثانى الحسن والثالث الحسين والرابع زين العابدين ، والخامس محمد الباقر ، والسادس جعفر الصادق والسابع إسماعيل بن جعفر . والمقصود عندهم بالرسالة « أن يلحق الجثمانيون من نوع الإنس بالروحانيين . فلما انتهت النوبة إلى محمد بن إسماعيل ارتفع التكليف الظاهر عن الناس [1] .

كما أعلنت هذه الطائفة أيضاً أن الله جعل لمحمد بن إسماعيل جنة آدم ، ومعناها : الإباحة للمحارم وجميع ما خلق فى هذه الدنيا . والدليل النقلى ﴿ فكلا منها رغدا حيث شئتما ﴾ وفى هذا إباحة للدنيا وابطال لكل تحريم ﴿ ولا تقربا هذه الشجرة ﴾ أى موسى بن جعفر وولده من بعده ، من أدعى منهم الإمامة . ثم أن محمد بن إسماعيل هو خاتم النبيين . « وما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » [2] .

وترى هذه الطائفة أن محمد بن إسماعيل من أولى العزم وأولو العزم عند هذه الطائفة – سبعة : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ ومحمد بن إسماعيل ، أما علة كونهم سبعة ، فذلك لأن النظام الكونى والنظام الإنسانى كذلك ، فأما عن النظام الكوني ، فإن السموات سبع والأرضين سبع ، وأما النظام الإنسانى : فإن الجسد الإنسانى سبع : يدان ورجلان وظهر وبطن وقلب والرأس الإنسانى سبع : عينان وأذنان وأنف وفم ولسان والأئمة سبعة وقلبهم محمد بن إسماعيل [3] .

الملاحظ أن هذه الباطنية الأولى التى ادعت أن القرآن هو نسخ للشرائع وأن لكل ظاهر باطناً وأن لكل تنزيل تأويلاً ، وأن الله وضع تلك الفرائض

---

(١) الرازى : إعتقادات فرق المسلمين والمشركين ، القاهرة ١٩٢٨ ، ص ٨٠ - ٨١

(٢) د . على سامى النشار . نشأ الفكر جـ ٢ ص ٣٨٣ .

(٣) نفس المصدر ص ٣٨٣ .

والسنن ليعذب بها خلقه ، أولئك الذين لا يعرفون أمام زمانهم ، فمن عرف إمام زمانه وعرف باطن تلك الشرائع والسنن ارتفعت عنه التكاليف .

هذه الأفكار تنسب إلى الخطابية بالذات ، لكن يبدو أن هذا المذهب الذى تضمن فكرة رفع التكاليف قد طبق فعلاً فى اليمن على يد دعاة الإسماعيلية ، الذين أقاموا دولة للباطنية هناك من أمثال ابن حوشب والمنصور وعلى بن الفضل الجدنى ، والملاحظ فى هذه النظرية أنها مزيج من المسيحية الغنوصية والإسلام مع فيثاغورية محدثة تتلاعب بالأعداد ، وبخاصة العدد سبع والعدد الإثنى عشر .

غير أننا ينبغى أن نلاحظ أن هذه الفرقة ليست هى الإسماعيلية الأولى الخالصة ولا المباركية أو بمعنى أدق ليست هى الميمونية ، ولا المباركية ، وقد تنبه فخر الدين الرازى إلى هذا ، فوضع الفرقتين الأوليين فى فرق الإسلام ، ووضع السبعية فى الفرق التى تتظاهر بالإسلام ، وليست مسلمة على الحقيقة [(١)] .

تاسعاً : - عوامل انتشار العقائد الباطنية فى الإمامة :

ويبقى بعد ذلك سؤال أخير هو لماذا أوجدت العقائد الباطنية أرضاً خصبة فى بلاد المغرب واليمن بالذات حيث ترعرت فيها وقويت إلى درجة هددت الخلافة العباسية فى بغداد .

وللإجابة على هذا السؤال يقتضينا الأمر أن نوضح العوامل الرئيسه التالية المؤثرة فى هذا الأمر وهى :

(١) - العامل البشرى :

إن دعاة الإسماعيلية الباطنية كانوا قد مهدوا للدخول فى المذهب قبل وصول أولئك الدعاة الذين أسسوا دولاً تقوم على أساس مذهبهم الباطن سواء أكان ذلك فى اليمن أم فى المغرب مثلاً .

---

(١) د . على سامى النشار نشأة الفكر . ص ٣٨٥ .

أ - كان أبو عبد الله جعفر الصادق بن محمد قد أرسل برجلين من الدعاة تلك البلاد حيث أخذا يمهدان لنشر المذهب وهما : (الحلوانى - وأبو سفيان) سنة ١٤٥ هـ وقال لهما إن المغرب أرض بور وإذهبا فاحرثا حتى يجىء صاحب البذر [١] .

فلمّا وصل إلى ابن حوشب نبأ موت سفيان داعى الإسماعيلية فى بلاد المغرب عهد إلى أبى عبد الله الشيعى - بمسئولية القيام بالدعوة إلى هذا المذهب وقال له أن أرض كنامه من بلاد المغرب قد حرثها الحلوانى وأبو سفيان ، وقد ماتا وليس لها غيرك فبادر فإنها موطأة ممهدة لك .. ولما دخل أبو عبد الله الشيعى بلاد المغرب - اتخذ دار هجرة فى فج الأخيار فى إيكجان ، الواقع فى بلاد كتامة بإفريقيا - وكانت تعرف إيجكان منذ قديم الزمان بأنها محل اجتماع الحجاج من الأندلس وشمال المغرب الأقصى وفى هذا المكان اتخذ أبو عبد الله الشيعى دار الهجرة وهو مركز حركته ومجمع أنصاره من البربر [٢] .

وقد اختار هذه المدينة كدار هجرة ومركزاً لدعوته نظراً لأنها ملتقى الحجاج فى هذه البلاد ، وبالتالى فإن ذلك يتيح له فرصة الدعوة إلى المذهب بين أكبر عدد ممكن من أهلها .

ب - أضف إلى ما تقدم أن البربر ، على ما هو مشهور عنهم من حب للقتال وما تعودوا من شظف فى العيش وما فطروا عليه من عدم التعود على النظام كانوا متأهبين للمخاطرة بأرواحهم إذا ما عرض لهم باعث يحرك فى نفوسهم ما جهلوا عليه من أقدام على المخاطر وركوب الأهوال زد على

---

(١) حسن إبراهيم - تاريخ الدولة الفاطمية ، طبع القاهرة (بدون تاريخ) ص ٤٦

(٢) المصدر السابق ص ٤٧ وما بعدها .

ذلك أن عامل الشراهة الذى فطر البربر على ارضائه وما انطوت عليه أخلاقهم من حمق وخشونة . كل ذلك جعلهم أطوع وأسلس قياداً إلى أبى عبد الله الشيعى فتمكن من الوصول إلى أغراضه من إثارة حميتهم وإعجابهم بآل على والمهدى [١] .

جـ - أن البربر لم يكن لديهم من الثقافة والتدبر ما يجعلهم يملكون أساساً لمجادلة أبى عبد الله الشيعى ، بالإضافة إلى أنه كان يستخدم من الأساليب ما يتلائم مع طبيعة نفوسهم ، حيث تميزت بما فطر عليه أفراد القبائل الرحل من سلاسة فى الإقتناع وتعصب لذلك .

٢ - العامل الجغرافى :

ويتلخص فى أن بلاد المغرب واليمن تقعان بعيداً عن حاضرة الدولة العباسية ببغداد فلم يشعر الخليفة ببغداد بما حل بدولته من ضعف ووهن كما ساعدت كراهية البربر للعرب وانضمامهم لأبى عبد الله الشيعى على قيام الدولة الفاطمية بالقيروان وانفصالها عن الدولة العباسية .

٣ - العامل السياسى :

انقسمت أملاك العباسيين إلى دويلات وإمارات صغيرة وحارب بعضها بعضاً وكان أمراء هذه الدويلات لا يبالون فى قليل ولا كثير بالخلافة العباسية المريضة المتهالكة ، وإنما اهتم كل أمير بنفسه وبإستقراره وتوسيع رقعة دولته وإن كان ذلك على حساب الخليفة العباسى نفسه ، وكانت الشعوب فى هذه الامارات تتطلع إلى منقذ ينقذهم من الأمراء ويعمل على أن يملأ الدنيا عدلاً كما ملئت جوراً أى أن هذه الشعوب المعذبة كانت تتطلع إلى المهدى المنتظر الذى سينشر العدل بين الناس [٢] .

* * *

---

(١) المصدر السابق .

(٢) محمد كامل حسين : طائفة الإسماعيلية ص ٣٧

وبعد : فهذه هى الباطنية وما أحدثته من آثار على صعيد نظرية الإمامة عندهم مستغلة للاضطهاد والظلم الواقع على أهل بيت رسول الله من أحفاد على بن أبى طالب فى تحقيق مآربهم البعيدة ، وقد تكونت من رجال تعددت مذاهبهم وقيل عنهم الكثير من حيث انتمائهم الدينى فهذا ميمون القداح مؤسس المذهب فى رأى الكثيرين يقال عنه أنه يهودى ثم يقال أنه ديصانى إلى غير ذلك من أقاويل وهذا أيضاً أبو الخطاب الأسدى ذلك الذى قيل عنه أنه واضع بعض عقائد الإسماعيلية الباطنية ويقال عنه أنه أدعى الألوهية وغيرهما من كبار رجالات تلك الدعوة ومؤسسيها .

ومهما يكن من أمر فإن هذه الدعوة كونت نظرية (إمامية) ظاهرها آيات القرآن الكريم وباطنها مزيج من الأفلاطونية المحدثة والفيثاغورية ، والمسيحية ، واليهودية خرجت به عن الإسلام .

* * *

الفصل الرابع
تعريف التصوف والصوفية

أولاً : تعريف التصوف والصوفية

لقد تعددت تعريفات التصوف وتعريفات الصوفى وكثر الجدل حول هذه التعريفات .

يقول القشيرى : [1] الصفاء محمود بكل لسان ضده الكدوره وهى مذمومة (أخبرنا) عبد الله ابن يوسف الأصبهانى قال أخبرنا عبد الله بن يحيى الطلحى ، قال حدثنا الحسين بن جعفر قال حدثنا عبد الله بن نوفل قال حدثنا أبو بكر بن عياشي عن يزيد بن أبى زياد عن أبى جحيفة ، قال خرج رسول الله ﷺ متغير اللون فقال : ذهب صفو الدنيا وبقى الكدر فالموت اليوم تحفه لكل مسلم « قال الأستاذ » هذه التسمية غلبت على هذه الطائفة فيقال رجل صوفى وللجماعة صوفية ، ومن يتوصل إلى ذلك يقال لها متصوف ، وللجماعة المتصوفة ، وليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربيه قياس والاشتقاق إلا ظهر فيه أنه كاللقب فاما قول من قال أنه من الصوف وتصوف إذا لبس الصوف كما يقال تقمص إذا لبس القميص فذلك وجه ولكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف ومن قال أنهم منسوبون إلى صفة مسجد رسول الله ﷺ فالنسبة إلى الصفة لا تجىء على نحو الصوفى . ومن قال أنه من الصفاء فاشتقاق الصوفى من الصفاء بعيد فى مقتضى الله وقول أنه مشتق من الصف فكأنهم فى الصف الأول بقلوبهم من حيث المحاضرة من الله تعالى فالمعنى صحيح ولكن اللغة لا تقتضى هذه النسبة إلى الصف ثم أن هذه الطائفة أشهر من أن تحتاج فى تعيينهم إلى قياس لفظ واستحقاق اشتقاق وتكلم الناس فى التصوف ما معناه وفى الصوفى من هو فكل عبر بما وقع له واستقصاء جميعة يخرجنا عن المقصود من

---

(١) أبو القاسم القشيرى : الرسالة القشيرية ، طبع القاهرة سنة ١٩٦٦ ص ٢١٦ وما بعدها .

الإيجاز وسنذكر بعض مقالاتهم فيه على التلويح إن شاء اللّه تعالى .
سمعت محمد بن أحمد بن يحى الصوفى يقول : سمعت عبد اللّه بن على التميمى يقول : سئل أبو محمد م الجريرى عن التصوف فقال : الدخول فى كل خلق سنى والخروج من كل خلق دنى . سمعت عبد الرحمن بن يوسف الأصبهانى يقول : سمعت أبا عبد اللّه محمد بن عمار الهمدانى يقول : سمعتُ أبا محمد المرغنى يقول سئل شيخى عن التصوف فقال : سمعت الجنيدى وقد سئل عنه فقال : هو أن يمتك الحى عنك ويحييك به ، سمعت أبا عبد الرحمن السلمى يقول : سمعت عبد الواحد بن محمد الفارس يقول : سمعت أبا الفاتك يقول : مسعت الحسين ابن منصوروقد سئل عن الصوفى فقال : وحدانى الذات لا يقبله أحد ولا يقبل أحداً . وسمعته يقول : سمعت عبد اللّه بن محمد يقول : سمعت جعفر بن محمد بن نصير يقول : سمعت أبا على الوراق يقول : سمعت أبا حمزة البغدادى يقول : علامة الصوفى الصادق أن يفتقر بعد الغنى ويذل بعد العز ويخفى بعد الشهرة وعلامة الصوفى الكاذب أن يستغنى بعد الفقر ويعز بعد الذل ويشتهر بعد الخفاء .
وسئل عمرو بن عثمان المكى عن التصوف فقال أن يكون العبد فى كل وقت بما هو أولى به فى الوقت . وقال محمد بن القصاب التصوف أخلاق كريمة ظهرت فى زمان كريم من رجل كريم مع قومٍ كرام . وسئل سمنون عن التصوف فقال أن تملك شيئاً ولا يملكك شىء . وسئل رويم عن التصوف فقال هو أن تكون مع اللّه تعالى بلا علاقة . سمعت عبد اللّه بن يوسف الأصبهانى يقول سمعت أبا نصر السراج الطوسى يقول أخبرنى محمد بن الفضل قال سمعت على بن عبد الرحيم الواسطى ، يقول سمعت رويم بن أحمد البغدادى ، يقول التصوف مبنى على ثلاث خصال التمسك بالفقر والإفتقار والتحقق بالبذل والإيثار وترك التعرض والاختيار . وقال معروف الكرخى التصوف الأخذ بالحقائق واليأس مما فى أيدى الخلائق . وقال حمدون

القصار صحبت الصوفية فإن للقبيح عندهم وجوهاً من المعاذير وليس للحسن عندهم كبير موقع يعظمونك به . وسئل الخراز عن أهل التصوف فقال : أقوام أعطوا حتى بسطوا ومنعوا حتى فقدوا ثم نودوا من أسرار قريبة إلا فابكوا علينا ، وقال الجنيد التصوف عنوة لا صلح فيها وقال أيضاً : هم أهل بيت واحد لا يدخل فيهم غيرهم ، وقال أيضاً التصوف ذكر مع اجتماع ، ووجد مع استماع وعمل مع أتباع . وقال أيضاً الصوفى كالأرض يطرح عليها كل قبيح ولا يخرج منها إلا كل مليح . وقال أيضاً أنه كالأرض يطؤها البر والفاجر وكالمسحاب يظل كل شئ ، وكالقطر يسقى كل شئ . وقال إذا رأيت الصوفى يعنى بظاهرة فاعلم أن باطنه خراب [١] .

يلاحظ من التعريف الأخير للصوفية الذى يقدمه الجنيد . أن الصوفية كانت قائمة أساس فرقة تجتمع على عمل معين يتسم بصفات معينة . فهو يقول : أنهم جماعة لا يدخل فيهم من ليس منهم ، أى أنهم طائفة لها فكرها الخاص ، وعقائدها الخاصة ، ويمكن أن نطلق عليها بالتعبير الاجتماعى (الجماعة المغلقة) التى لا يسهل على أى امرىء أن يدخل فيها . إلا إذا اتخذ لنفسه طريقاً طويلاً شاقاً مرسوماً ومحدد المعالم من المجاهدات والرياضات النفسية ، إذا نجح فى اجتيازه فإنه يكون قد صار واحداً منهم .

ويقول القشيرى فى رسالته وقال سهل بن عبد الله الصوفى : من يرى دمه هدراً وملكه مباحاً . وقال النورى نعت الصوفى السكون عند العدم والإيثار عند الوجود وقال الكتانى : التصوف خلق فمن زاد عليك فى الخلق فقد زاد عليك فى الصفاء وقال أبو على الروذبارى التصوف الإناخة

---

(١) أبى القاسم عبد الكريم بن هوزان القشيرى ، الرسالة القشيرية . القاهرة سنة ١٩٦٦ م ص ٢١٦ - ٢١٨ .

على باب الحبيب وإن طرد عنه وقال أيضاً صفوة القرب بعد كدورة البعد وقيل أقبح من كل قبيح صوفى شحيح . وقيل التصوف كف فارغ وقلب طيب. وقال الشبلى التصوف الجلوس مع الله بلاهم . وقال أبو منصور الصوفى المشير عن الله عز وجل فإن الخلق أشاروا الجلوس إلى الله تعالى . وقال الشبلى الصوفى منقطع عن الخلق متصل بالحق كقوله تعالى وأصطنعك لنفسى قطعة عن كل غير ، ثم قال أن ترانى وقال أيضاً الصوفية أطفال فى حجر الحق . وقال أيضاً التصوف برقة محرقة . وقال أيضاً هو العصمة عن رؤية الكون . وقال الجريرى التصوف مراقبة الأحوال ولزوم الأدب . وقال المزين : التصوف الأنقياد للحق . وقال أبو تراب النخشى الصوفى لا يكدره شىء ويصفو به كل شىء . وقيل الصوفى لا يتبعه طلب ولا يزعجه سبب ، سمعت أبا السجستانى يقول : سمعت أبا نصر السراج يقول سئل ذو النون عن التصوف فقال : هم قوم آثروا الله عز وجل على كل شىء فآثرهم الله عز وجل على كل شىء . وقال الواسطى : كان للقوم إشارات ثم صارت حركات ثم لم يبق إلا حسرات . وسئل النورى عن الصوفى فقال من سمع السماع وآثر الأسباب سمعت أبا حاتم السجستانى يقول ، سمعت أبا نصر السراج يقول ، قلب للحصرى من الصوفى عندك ، فقال الذى لا تقله الأرض ولا تظله السماء (قال الأستاذ أبو القاسم) إنما أشار إلى حال المحور . وقيل الصوفى من إذا استقبله حالان أو خلقان كلاهما حسن كان مع الأحسن ، وسئل الشبلى لم سموا بهذه التسمية ، فقال لبقية بقيت عليهم من نفوسهم ولولا ذلك لما تعلقت بهم تسمية ، سمعت أبا حاتم السجستانى يقول : سمعت أبا نصر السراج يقول : سئل ابن الجلاء ما معنى صوفى ؟ فقال : ليس نعرفه فى شرط العلم ولكن نعرف فقيراً مجرداً من الأسباب كان مع الله تعالى بلا مكان ، ولا يمنعه الحق سبحانه من علم كل مكان فسمى صوفياً ، وقال بعضهم : التصوف

اسقاط الجاه وسواد الوجه فى الدنيا والآخرة ، وقال أبو يعقوب المزابلى : التصوف حال تضمحل فيها معاً الإنسانية ، وقال أبو الحسن السيروانى الصوفى يكون مع الواردات لا مع الأوراد (١) .

من تلك التعريفات التى أوردها لنا القشيرى فى رسالته وغيرها ، يمكن أن نلاحظ وجهات النظر المتعددة فى مفهوم التصوف ، الذى يبدو فى ظاهرة أنه حالات فردية ، واجتهادات شخصية فى طريق الوصول إلى الله تعالى أو الاتصال به ، بالعشق أو الفناء ، أو ادعاء الاتحاد به ، ولكن لو تأملنا الواقع ، لوجدنا أن هناك تشابهاً كبيراً فى معالم الطريق ، الذى حاولت رسمه كل فرقة من فرق الصوفية ، على أساس نظرية متكاملة يمكن تفسيرها على أنها لون من ألوان اليوتوبيا ، وسوف أحاول أن اتتبع تلك النظريات ، لأوضح الجانب اليوتوبى فيها .

ثانياً - الفرق بين الزهد والتصوف :

أ - الزهد لا يتعدى مجرد الابتعاد عن حياة الدنيا واتباع فروض الدين والإكثار من ذكر الله ، فى حين أن التصوف له نظرياته ومنهجه ومنطقة الخاص به .

ب - الزهد هو الناحية العملية من التصوف ، وهو أسلوب من الحياة بحياة المؤمن ، وموقف خاص من الدنيا وزخرفها وشهواتها ولذاتها ، ومن النفس ومطامعها : وأخذ الإنسان نفسه بأنواع الرياضات والمجاهدات الروحية والبدنية ، وهو بهذا المعنى إسلامى حث عليه الدين وأخذ به النبى ﷺ وكثير من الصحابة الذين يعد من أبرزهم أبا ذر الغفارى ، وخذيفة بن اليمان ، وسلمان الفارس والبراء بن مالك . وبهذا المعنى العام نستطيع أن نقول أن الإسلام نفسه كان العامل الأول والأهم فى نشأة حركة الزهد بين

---

(١) القشيرى . الرسالة القشيرية . ص ٢١٨ - ٢١٩ .

المسلمين . أما ما طرأ على الزهد بعد ذلك من تعقيدات ، وما دخل فيه من نظم وقواعد ، وما ظهر فيه من طقوس مجردة فإنه يعود إلى عوامل أخرى ربما كان أبرزها الرهبنة المسيحية .

جـ - لقد أدرك الفرق بين الزهد والتصوف بعض كتاب العرب السابقين كابن الجوزى الذى يقول : فالتصوف مذهب معروف يزيد على الزهد : ويدل على الفرق بينهما أن الزهد لم يذمه أحد ، وقد ذموا التصوف وكذلك تنبه إلى هذه التفرقة ابن خلدون ، وهى تفرقة أخذ بها من المحدثين جولد زيهر وأفاض فى الكلام فيها ، وأخذ بها من بعده كل من كتب فى التصوف إلى يومنا هذا . ذلك لأن للتصوف ناحيتين مختلفين : الناحية العملية وهى الزهد وما ينطوى عليه من حياة العبادة والانقطاع إلى الله ، والعزوف عن الدنيا وشهواتها وكل ما هو مطمع للنفس ، والأخذ بأنواع المجاهدات والرياضات . والناحية الإشراقية التى هى التصوف بمعناه الدقيق : وتنطوى على كل ما يلزم عن حياة الزهد من الأحوال ، وما ينكشف للصوفى بعد تصفية النفس وتطهيرها من مواجد وأذواى ومعارف ، وما يدركه من معانى القرب الإلهى أو ما يسميه الصوفية « الإتصال بالله » .

هذه هى أهم الفروق ، التى تحدد معنى الزهد ومعنى التصوف ، على أنه ينبغى أن نوضح فى نهاية الأمر ، أن الزهد والتصوف يكمل كل منهما الآخر ، فإن كل متصوف زاهد ، وكل زاهد ليس بمتصوف .

* * *

• مصادر الفكر الصوفى فى نظرية الولاية :

لقد أثرت العوامل والمصادر من إسلامية وغير إسلامية فى نشأة هذه الألوان المختلفة من التصوف وتطورها ، وإن صبت فى مجرى التصوف العام أثناء سيره فى تاريخه الطويل - روافد من الفكر تصل إليه كلما شق طريقه فى بلد من بلاد الدولة الإسلامية المترامية الأطراف ، وكان من الطبيعى أيضاً أن يعالج الباحثون التصوف على أساس أنه نتاج إسلامى أولاً وعلى أنه متأثر بمؤثرات خارجة عن الإسلام ، ثانياً ، ولكنهم قلبوا الوضع وضلوا الطريق .

« أن التصوف فى القرن الثالث - شأنه فى ذلك شأن التصوف فى أى عصر من عصوره - قد ظهر نتيجة لعوامل مختلفة أحدثت فيه أثرها مجتمعة : أعنى بهذه العوامل البحوث النظرية فى معنى التوحيد الإسلامى ، والزهد والتصوف المسيحين ، ومذهب الغنوصية ، والفلسفة اليونانية والهندية والفارسية » [١] .

وفى القرن السادس الهجرى دخل التصوف دور فلسفى وصل إلى ذروته فى تصوف أصحاب وحدة الوجود الذين استفادوا من نظريات التصوف القديم ومصطلحاته ، وأضافوا إليها ما لم يخطر ببال القدماء .

لقد مر التصوف بأدوار مختلفة لكل دور خصائصه ومميزاته . انتشر فى بيئات وشعوب متباينة تبايناً ثقافياً ، وعقلياً واجتماعياً بقدر ما كانت متباينة جغرافياً . ولم يكن الشعوب الإسلامية - عندما ظهر التصوف - من الروابط التى تربطها سوى وحدة الدين واللغة . فكان من الطبيعى أن تنمو البذور الأولى للظاهرة الجديدة وتترعرع وتؤتى ثمارها متكيفة لظروف

---

(١) د . أبو العلا عفيفى . التصوف الثورة الروحية . ص ٦٢ - ٦٤ .

البيئات التى نبتت فيها : ولذلك ظهر فى تاريخ التصوف الزهد البسيط السنى ، كما ظهر فيه الزهد الرهبانى أو القريب من الرهبانى وظهرت فيه المدارس التى انفردت كل منها بلون خاص من حيث تعاليمها النظرية والعملية ومن حيث اصطلاحاتها . فمدرسة البصرة غير مدرسة الكوفة وهكذا .

يرى البعض أن التصوف الإسلامى استمد أصوله من الفيدانتا الهندية إلا أنه لم يثبت إتصالاً بين الهنود والعرب فى بداية نشأة التصوف ، ولكننا نلحظ فى الإسلام زهداً وهبانياً يلوح فيه الأثر المسيحى ، كما نلحظ أن أثره مسيحياً فى نظرية الحلول لدى (الجيلى) فى نظرية الإنسان الكامل إذ يقول أن الله قد خلق الإنسان على صورته فأودع فيه صفاته ، وفى المسيحية نجد أن اللاهوت قد امتزج بالناسوت فى صورة عيسى ابن مريم . ونلحظ أيضاً ذلك الأثر المسيحى فى نظرية (ابن عربى) الذى يرى أن خاتم الأولياء سيظهر فى المسيح الذى سيعود ويحكم الأرض بشريعة الإسلام ، وأن عقيدة التناسخ تظهر واضحة فى نظرية ابن عربى الذى يزعم أن الروح المحمدية تظهر فى أفراد عديدين هم الرسل والأنبياء والأولياء .

كما يمكن ملاحظة أثر الغنوصية المسيحية ، والأفلاطونية المحدثة فى النظريات - المتعددة المتعلقة بعلم الأولياء ، إذ أن الولى يختص بمعرفة علم الباطن الذى يتلقاه من الله . أو يرثه من الأنبياء .

* * *

الفصل الخامس
الإمامة عند الصوفية

أولاً : نشأة التصوف فى الإسلام :

لم ينشأ التصوف فى الإسلام بصورته الناضجة إلا منذ بداية القرن الثالث الهجرى أما المرحلة التى مهدت له فلقد تمثلت فى الزهد الذى انتشر فى القرنين الأول والثانى . فإذا نظرنا إلى التصوف نظرة تاريخية وإلى الأدوار المختلفة التى مر بها ، وجدناه فى كل هذه الأدوار ثورة واحدة متصلة ، يختلف شكلها باختلاف موضعها واتجاهها فقد اتجهت ضد العالم فى كل عصر من عصور التصوف ، وفى عصر الزهد الأول بوجه خاص ، واتجهت ضد رجال الدين من فقهاء ومتكلمين بمجرد أن دخل التصوف فى دور نضجه ابتداء من القرن الثالث ، ثم اتجهت ضد الفلسفة التقليدية بعد ذلك .

لقد كان الزهد وما يتطلبه من أفكار الذات وهجر الدنيا أساس التصوف فى دوره الأول إلى حوالى سنة مائتين من الهجرة ، مع مراعاة دقيقة لآداب الشريعة الإسلامية وأوامرها . وكانت أحكام الشريعة فى أول عهد الإسلام تؤخذ بالرواية - أى بالتواتر - لا فرق فى ذلك بين عبادات واعتقادات أو معاملات . ولكن ما لبث المسلمون أن بدأوا يتناقشون فى مسائل الدين ويتدارسونها ، ويبحثون عن علل الأحكام على نمط علمى ، ثم يدونون ما يتناقشون فيه . وكان أول ما اتجهت الهمم إلى النظر فيه مسائل الشريعة: أى الأحكام العملية التى يدرسها علم الفقه ، حتى أن كثيراً من المسلمين

قد حسب أن الإشتغال بهذا العلم والعمل به هو الغاية من الدين ، كان هذا دور الاجتهاد الذى ظهر فيه الأخذ بالرأى فى المسائل الفقهية .

غير أن هذه الحال لم تدم طويلاً : فقد بدأ بعض المسلمين ينظرون إلى كمال دينى آخر غير هذا الكمال الذى هو استنباط الأحكام الشرعية والعمل بمقتضاها . ذلك الكمال الدينى الآخر هو البحث فى المعانى الباطنية للأحكام ، بالإضافة إلى معانيها الظاهرة . وكان هذا إيذاناً بظهور علم باطن الشريعة إلى جانب علم الظاهر (١) .

ولقد تضاربت الأقوال فى نشأة التصوف الإسلامى . فمن قائل أن التصوف فى صميمه حركة بعيدة عن روح الإسلام ، أتت إلى المسلمين من الفرس - أو من الهند عن طريق الفرس - وكانت بمثابة رد فعل للعقلية الآرية ضد دين فرضه الغزاة المسلمون على أهل فارس فرضاً . ومن قائل أن هذه الحركة استمدت أصولها من الرهبنة المسيحية التى وصلت إلى المسلمين ، وهى تحمل فى ثناياها أفكار الأفلاطونية الحديثة والأفكار الغنوصية والرواقية والهرمسية التى كانت منتشرة فى مصر والشام عند الفتح الإسلامى . ومن قائل أن التصوف فى أدواره الأولى إسلامى بحت ، يمكن الرجوع به إلى تعاليم الإسلام نفسه ، وسيرة نبى الإسلام : إلخ ، وكل من أصحاب هذه المذاهب ينظر إلى التصوف من ناحية خاصة ، أو يعتمد فى دعواه على دراسة صوفى بعينه ، غير ناظر إلى الحركة الصوفية فى جملتها ، أو إلى التاريخ الإسلامى الدينى ، والثقافى والسياسى والاجتماعى والعنصرى فى جملته ... فإن التصوف - ككل حركة دينية إنقلابية - قد استمد عناصره ، ونشأ وتطور فى ظل التطورات

---

(١) د . أبو العلا عفيفى ، التصوف الثورة الروحية فى الإسلام ، ١٩٦٣ ، ١١٢/١ .

العنيفة الشاملة التى مر بها تاريخ المسلمين فى القرون الثلاثة الأولى ، وكان نتيجة مباشرة لها . فمن العبث محاولة إرجاع مثل هذه الحركات إلى أصل أو مصدر واحد [1] .

وعلى أية حال فإن حياة الزهد ، قد ظهرت فى كل بلد ، وفى كل عصر، وبالتالى فقد انتشر فى الإسلام فى قرنيه الأولين [2] ولكن هذا الزهد لم يبق كما كان عليه فى تلك الفترة ، بل أنه امتزج بعناصر أخرى طورته ، فتحول من زهد خالص إلى زهد صوفى ، ويفسر ماسينيون هذا الزهد الصوفى بأنه ينشأ عادة من ثورة باطنية تخامر النفوس ، فيثور صاحبها على المظالم الإجتماعية ، ولا يقف عند مقاومة غيره بل يبدأ بجهاد نفسه وإصلاح خطيئاته [3] .

ثانياً - أسباب قيام حركة التصوف :

وكأى حركة ثورية ، يمكن أيضاً أن نرد التصوف إلى أسباب عدة أدت إلى :

أ - الأسباب السياسية :

لقد تشعبت وتعددت الأنظمة السياسية التى سادت العالم الإسلامى ، نتيجة لضعف خلافة العباسيين فى بغداد ، فلم يلبث الأمير الأموى ، عبد الرحمن الناصر بن محمد بن عبد الله المروانى ، أن أتخذ لنفسه لقب الخلافة ، لما رأى العلويين يخرجون أفريقية من أيدى العباسيين ويتخذون

---

(١) نيكلسون . التصوف الإسلامى وتاريخه . ترجمة د . أبو العلا عفيفى . القاهرة ١٩٥٦ م . مقدمة المعرب . ص ٦ .

(٢) ماسينيون : الإسلام والحضارة العربية ص ٢٨ .

(٣) ماسينيون : الإسلام والحضارة العربية ص ٢٨ .

لأنفسهم - من قبله - لقب الخلافة .. وبذلك ضمت « مملكة الإسلام » خلفاء ثلاثة : خليفة أموياً فى الأندلس ، وخليفة علوياً فاطمياً فى المغرب ثم فى مصر ، وخليفة عباسياً فى بغداد . وكانوا يمثلون فى العالم الإسلامى الأحزاب السياسية التى كانت متقاسمة . ولم يقتصر أمر الإنقسام على الخلافة وحدها بل أن قبضة بغداد ، حين ضعفت عن أطراف هذه المملكة المترامية ، بدأ أمراؤها يستقلون بأمرها ، وينفرون بحكمها . سواء أكانت العوامل الأساسية ، لهذا التفكك راجعة إلى ضعف السلطة المركزية فى بغداد ، أو إلى ظهور الحركات القومية فى هذه الأقطار ، أو إلى صعوبة الإتصال بين بغداد وأطراف الحركات القومية فى هذه الأقطار ، أو إلى صعوبة الاتصال بين بغداد وأطراف المملكة ، سواء أكان أحدُ هذه الأسباب وحده ، أو هى كلها مجتمعة ، أدت إلى ذلك التفكك ، فمما لا ريب فيه أن تيار التفكير الإسلامى لم يجمد ، بل سار مسرعاً نحو الكمال ، فإن هذا التفكك السياسى كان بشير ازدهار فكرى وتسابق حضارى ، قلما يشهد المرء له نظيراً فى تاريخ الحضارات [1] .

أن الثورة الصوفية التى بدت وكأنها ثورة روحية إنما كانت تعتبر فى الحقيقة ثورة على الأنظمة السياسية السائدة فى ذلك العصر ، وقد انفرد القرن الأول فى الإسلام بالعوامل الكثيرة التى شجعت على ظهور الزهد وانتشارا . فالحروب الأهلية الطويلة الدامية « التى وقعت فى عهد الصحابة وبنى أمية » والتطرف العنيف فى الأحزاب السياسية ، وازدياد التراخى والاستهانة فى المسائل الخلقية ، وما عاناه المسلمون من عسف الحكام والمستبدين الذين يملون ارادتهم وآراءهم الدينية على غيرهم ممن

---

(١) أبو عبد الرحمن السلمى . طبقات الصوفية . تحقيق شريبة (نور الدين) جـ ١ . ١٩٥٣م - القاهرة . ص ١٢ - ١٣ . التصدير .

أخلصوا فى إسلامهم ، ورفض هؤلاء الحكام - علانية - كل فكرة تتصل بالخلافة الدينية التى حاول المسلمون ارجاعها : كل هذه عوامل حركت فى نفوس الناس الزهد فى الدنيا ومتاعها ، وحولت أنظارهم نحو الآخرة ، ووضعت آمالهم فيها . ومن هنا ظهرت حركة الزهد قوية عنيفة ، وانتشرت على مر الأيام . فكانت زهداً دينياً خالصاً فى بادىء الأمر ، ثم دخل إليها بالتدريج بعض العناصر الصوفية حتى تحولت فى النهاية إلى أقدم صورة نعرفها للتصوف الإسلامى .

ب - أسباب اجتماعية :

لقد جاء الإسلام ، فنادى بالعدالة الاجتماعية ، والمساواة بين أفراد المجتمع ، كما نادى بأن لكل إنسان أن يحصل على نصيبه من الدنيا - ولكن الطبقة الأرستقراطية فى قريش تلك التى دخلت فى الدين الإسلامى ، كان على أفرادها أن يتنازلوا عما كان لهم سطوة وسلطان ، ويسوى بينهم وبين العبيد ، وصدق رسول الله إذ قال : « لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى » ، وأخلص بعضهم عظيم الإخلاص للإسلام وزاد عنه ، واستشهد دونه ، وأما البعض الآخر ، فقد بقيت فى نفوسهم نوازع السيطرة والأثرة ، فما كان منهم إلا أن تسللوا إلى مراكز السلطة ، فوصل بنو أمية ، مثلاً إلى الخلافة ، وحكموا باسم الإسلام ، مع الدعوة إلى تفسير بعض الآيات القرآنية بالطريقة التى تحفظ لهم مراكزهم الاجتماعية ، وتؤكد على تدعيم الطبقات الاجتماعية داخل المجتمع الإسلامى ، مما أدى إلى انتشار بعض العادات السيئة واغفال الحكام لمراقبة تنفيد الشرائع ، التى سنها الإسلام . والخاصة بالمعاملات الاجتماعية بين أفراد المجتمع ، وكرد فعل لهذه الأوضاع الاجتماعية ... ظهرت حركة الزهد والصوفية ثائرة على انشغال أفراد المجتمع ، بحياة الدنيا ، وملذاتها لتذكر الناس بالآخرة ، والدعوة إلى تحقير تلك الحياة المادية الزائلة .

والثورة الروحية ضد الدنيا وكل ما يتصل بها . وإن كنا نلمسها فى كل دور من أدوار التصوف الإسلامى ، تظهر أعنف ما تكون فى دوره الأول - حيث وجد من بين المسلمين من وصف بصفة الزهد ، قبل أن يوجد فيهم من وصف بصفة الصوفى [1] لأن الصوفى ، يختلف عن الزاهد ، كما سأوضح فيما بعد .

جـ - أسباب عقائدية ومذهبية :

١ - لقد ظهرت بذور التصوف الأولى فى نزعات الزهد القوية التى سادت فى العالم الإسلامى فى القرن الأولى الهجرى ، وترجع العوامل الرئيسية فى ظهور نزعة الزهد - كما يقول جولد زيهر إلى عاملين مهمين:

أ - المبالغة فى الشعور بالخطيئة :

ب - الرعب الذى استولى على قلوب المسلمين من عقاب الله وعذاب الآخرة .

سارت هذه الحركة وفقاً لقواعد الدين أول الأمر ، غير أنه لم يكن مفر من أن المبالغة فى التزام بعض الأمور الواردة فى تعاليم النبى محمد ﷺ ، وفى سيرته ، استتبعت من الناحية الأخرى اهمالاً لبعض مسائل الدين التى قد لا تقل فى نظر أخيار المسلمين عن غيرها من المسائل من حيث قيمتها الدينية ، وسرعان ما تحول الزهد إلى التصوف [2] .

٢ - لم تكن الثورة التى قام بها الفقهاء ضد الصوفية فى الحقيقة إلا رد فعل للثورة الروحية التى أراد الصوفية أن يحدثوها فى الدين ، فقد أدرك الصوفية أن الدين قد أصبح فى عرف الفقهاء جملة رسوم وأوضاع لا

---

(١) د . أبو العلا عفيفى . التصوف . الثورة الروحية فى الإسلام . ص ١٠٦ .

(٢) نيكلسون في التصوف الإسلامى . ترجمة أبو العلا عفيفى . ص ٢ .

حياة ولا روحانية فيها وهذه الرسوم والأوضاع أن أرضت ظاهر الشرع ، وأشبعت عقول المشرعين المفتونة بتقعيد القواعد ، وتعميم القوانين ، حتى ولو أدى ذلك إلى اصطناع « الحيل » والمخارج « غير المعقولة » ، لم تكن لترضى باطن الشرع ولا تشبع العاطفة الدينية عند الصوفية . ولما ظهر الصوفية ، وأخذوا بمنهجهم فى فهم الدين ، بدأ الفقهاء يتوجسون منهم خفية مدة من الزمن ، ثم ما لبثوا أن ناصبوهم العداء علانية ، واضطهدوهم بكل نوع من أنواع الاضطهاد ، التى يحدثنا عنها التاريخ : ذلك أن شقة الخلاف بينهم قد اتسعت على مر الزمن ، وأصبح لكل من الطائفتين وجهة نظر خاصة فى ماهية الدين نفسه ، وكيف يجب أن يفهم ؟ وماهية الأحكام الشرعية وكيف يجب أن تستنبط وتعلل ؟ وماهية العبادة وعلى أى نحو تؤدى ؟ وما هو الحلال وما هو الحرام ، وأيهما أفضل الفروض أم النوافل ، وعلى أى نحو يجب أن نتصور الصلة بين الله والإنسان : أهى صلة محب بمحبوبه ، أم صلة عابد بمعبوده ؟ وما هو التوحيد ، أهو أفراد الموحد بصفات تميزه عن المحدثات ، أم افراده بالوجود الحق ؟ إلى غير ذلك من المسائل التى كانت فى صميم الدين. كان من الطبيعى إذن أن يقع الصدام بين الطائفتين لاختلافهما فى الفكرة والمنهج والعاطفة . وظهر الخلاف على حقيقته حوالى المائتين بين الفقهاء ، ومتصوفة البصرة والكوفة ، ثم تلاه سلسلة من الاضطهادات فى مصر والشام والعراق انتهت فى سنة ٣٥٩ بمأساة الحسين بن منصور الحلاج [١] .

٣ - ويرى المرحوم الدكتور أبو العلا عفيفى . أن الصوفية ثاروا على علم الكلام والفلسفة كما ثاروا على الفقه . ولم يرضهم فهم نظار المتكلمين والفلاسفة لعقائد الدين كما لم يرضهم فهم الفقهاء لمعنى الشريعة والغاية

---

(١) د . أبو العلا عفيفى « التصوف الثورة الروحية » ص ١١٢ .

منها . وقد امتدت ثورتهم إلى المنهج الذى اتبعه النظار - متكلمين كانوا أم فلاسفة - فى وصولهم إلى قضاياهم التى يعبرون بها عن معنى الألوهية ويصورون بها الصلة بين الله والعالم ، والله والإنسان بوجه خاص .

أما « الكلام » فكما يقول الغزالى - قد يرضى به من يسلم للمتكلمين بمقدماتهم ولكنه لا غناء فيه لمن يطلب العلم اليقينى الذى لا يتسرب إليه الشك بوجه من الوجوه . وعماد علم الكلام الدليل العقلى على صحة العقائد والدفاع عنها ضد المبتدعة والملحدين ولكن الدليل العقلى يمكن هدمه بدليل عقلى آخر معارض له . ولذلك نرى نظار المتكلمين لا يكادون يجمعون على مسألة واحدة من مسائل العقائد لاختلاف أساليب فهمهم وأدلتهم .

وأما الفلسفة فأكثر اعتماداً على المنهج العقلى من علم الكلام ، وأشد تشبثاً به . وهى ترى الشئ ونقيضه ، وتبرهن على كل منهما بأدلة متكافئة فى القوة ، وتستعمل العقل وأدواته ومقولاته فى ميدان البحوث الإلهية الخارجة بطبيعتها عن طور العقل لذلك لا يظفر الفيلسوف من فلسفته إلا بالحيرة وتبلبل الفكر إذا تصدى للنظر فى مسائل الألوهية والنفس وصلة الله بالإنسان ونحو ذلك .

وقد تمثلت ثورة الصوفية ضد المنهج العقلى الذى انتهجه الفلاسفة ، والمتكلمون فيما قالوا به من منهج ذوقى فى المعرفة ، ولكن الفلاسفة والمتكلمين الذين أخفقوا - فى نظر الصوفية - فى منهجهم فشلوا أيضاً فشلاً ذريعاً فى تصورهم للألوهية ، وباعدوا بين الله وخلقه . فالله فى نظر جمهور الفلاسفة والمعتزلة من المتكلمين ، مبدأ يكاد يكون مجرداً عن الصفات إلا ما كان منها سلبياً ، وقد بالغوا فى تنزيهه إلى الحد الذى قضى على « الشخصية الإلهية » وتعطيل الصفات التى وصف الله بها

نفسه فى القرآن ، كما بالغوا فى التوحيد إلى الحد الذى أفسد التوحيد ، وتصور المتكلمون الصلة بين الله والإنسان صلة بين عابد ومعبود ، فى حين تصور الصوفية هذه الصلة صلة بين محب ومحبوب وقالوا أن العبادة فرع المحبة [1] .

لقد كثر الجدل حول الذات الإلهية وصفات الله ، وتعددت المذاهب فى هذا المجال ، وقدم علماء الكلام من البراهين والأدلة العقلية ما يثبت موقف كل فرقة منهم ، فمن منزهه لله ، ومعطله لصفاته كالمعتزلة ، ومن مثبتة لصفاته على أنها أوجه ذاته ، إلى غير ذلك من الآراء المتعددة . فانبرى الصوفية محاولين الدفاع عن وحدانية الله ، مستندين إلى آيات القرآن الكريم التى كانت تدعو فى بساطة ، إلى أن الله واحد « لا إله إلا هو » « الحى القيوم » وقال تعالى ﴿ وإلهكم إله واحد ﴾ أو كما قال ﴿ قل هو الله أحد ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الكريمة ، التى تقدم البرهان على وحدانية الله .

ومن الصوفية من فهم « التوحيد » أفراد الله بالوجود الحق الذى ليس إلى جانبه وجود ، ذاتاً كان ذلك الوجود الآخر ، أو وصفاً وفعلاً - على اختلاف ما بينهم فى التعبير على هذا المعنى وصياغته . فإن بعضهم كان أدنى إلى الاعتدال وأقرب إلى مذهب أهل السنة كالحارث المحاسبى . وبعضهم أشرف على القول بوحدة الوجود كأبى القاسم الجنيد ، وبعضهم قال بوحده وجود سافرة مثل محى الدين بن عربى [2] .

لقد دعا القرآن فى كثير من آياته إلى ذكر الله ، بمعنى ذكر الله باللسان

---

(١) د . أبو العلا عفيفى « التصوف الثورة الروحية فى الإسلام » ص ١٥٦ .

(٢) المصدر السابق . ص . ١٦٠ .

والتفكير فيه وفى خلقه وجلاله ، ولكن الصوفية ثاروا على الأسلوب المتبع فى ذلك فى مجال تفسير الذكر .

وقد ورد « الذكر » فى القرآن باعتباره نوعاً من أنواع العبادة . قال تعالى ﴿ واذكروا اللّه كثيرا ﴾ . أى تذكروه وتفكروا فيه : كما ورد طلب جريان اسم اللّه على اللسان فى مثل قوله تعالى ﴿ واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا ﴾ وقوله ﴿ واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا ﴾ .

وليس فى هذا أو ذاك مغزى صوفى خاص . كما أن المسلمين الأوائل لم يحاولوا أن يفهموا من مثل هذه الآيات أكثر من إنها تأمر بكثرة جريان اسم اللّه على اللسان تعبداً ، وتحض على دوام ذكره والتفكير فيه باعتباره الخالق المدبر . ولكن الصوفية نظروا إلى الذكر نظرة أخرى وحددوا وظيفته منزلته بين العبادات ، كما فصلوا فى أنواعه وقواعده . لم يقصروا الذكر على ترديد اسم اللّه ، بل أدخلوا فيه التعبد بأى اسم من الأسماء الإلهية ، وبجمل مقتبسه من نصوص القرآن مثل « سبحان ربى » « اللّه لا إله إلا هو » وما أشبه ذلك [1] .

لقد حفل القرن الثالث الهجرى بتفاعل العناصر الثقافية والحضارية المتعددة ، والتى كانت تستوعبها الدولة العربية الإسلامية . والتصوف لم يكن قاصراً على الإسلام ، إذ هو ظاهرة عالمية ظهرت قبل الإسلام فى الحضارات السابقة عليه ، وقد كان فى بدء أمره صورة من صور الحياة الدينية ، لا يأخذ بها إلا الأفراد ، ولا يأخذها عن هؤلاء الأفراد إلا خاصة أصحابهم . ثم أصبح رويداً رويداً حركة منظمة ومدرسة يتخرج فيها الأولياء ، لها قواعدها ورسومها من حيث سيرة المريدين وأخلاقهم وعباداتهم . وأصبح المريد يتلقى قواعد الطريق الصوفى على أستاذه ،

---

(١) المصدر السابق ص ٢٥٩ .

ويخضع لإرشاد هذا الأستاذ خضوعاً أعمى . وهنالك دلائل واضحة على أن رجال التصوف من أهل القرن الثالث لم يقنعوا بحياة الزهد والعزلة عن الناس ، بل تطلع المريد الذى سلك طريق القوم إلى أن يصبح يوماً شيخاً عظيماً ومرشداً ملهماً : يظهر فى الحفلات العامة ، ومن حوله أتباعه الكثيرون المعجبون به [1] يقول أبو يزيد البسطامى : « من لم يكن له أستاذاً فإمامة الشيطان » [2] .

وهى فكرة يظهر أن لها صلة بالنظرية الشيعية التى كان عبد الله بن سبأ أول من قال بها .

هكذا يمكن أن نلاحظ مما سبق ، أن أسباب ظهور التصوف فى الإسلام ، لا يمكن ردها إلى سبب واحد بالذات ، بل أن كل الأسباب السابقة عملت مجتمعة ومتفاعلة على ظهور التصوف .

* * *

---

(١) نيكلسون . التصوف الإسلامى ص ١٩ .

(٢) الرسالة القشيرية . القاهرة ١٩٦٦ . ص ١٨١ .

ثالثاً :

نظرية الإمامة عند الصوفية

(الولاية الصوفية)

يؤرخ عادة للتصوف على أنه فى جملته محاولة لتغيير الواقع بالإبتعاد عنه وتحقيره والمبالغة فى ذكر عيوبه ، وحث الناس على الإنضمام إلى حركتهم لا بالأساليب التى استخدمتها الشيعة الإسماعيلية ولكن بطرق أخرى سنعرض لها فى موضعها .

ويبدأ التصوف كما هو معروف بالزهد الذى انتشر بالكوفة فى القرن الأول وتمثل فى أناس يفرون من أنفسهم ومن الناس إلى المجاهدة أو البكاء أو الإنعزال أو الإنفراد أو السياحة أو القتال أو العبادة المبالغ فيها ولكن الزهد تطور بعد ذلك وصار له رؤوس وجعلت المشارب تتحدد وتتضح ، فرأس للزهد الميال إلى البكاء ، ورأس للزهد الداعى إلى الحب وهكذا ... [1] .

أولاً : السمات العامة للنظرية :

هكذا ... اتخذ التصوف شكلاً جماعياً فانضم إلى رؤوس المذهب على اختلافهم اتباع ومريدون وأصبحت جماعاتهم تشكل مراتب ودرجات تتجدد حسب الظروف والطريق الذى رسمه لهم مشايخ الصوفية ، ولعل الاختلاف

---

(١) د . كامل مصطفى الشيبى – الصلة بين التصوف والتشيع ، طبع القاهرة سنة ١٩٦٤ جـ ٢ ، ص ١٢٣ .

يبدو واضحاً فى وجهات النظر ، والنظريات التى وضع أنساقها كبار الصوفية إلا أنه من الممكن أن نميز السمات العامة لنظرية الإمامة (الولاية) عند الصوفية وتتمثل فى :

أ - علاقة المريد بالشيخ .

ب - واجبات المريد نحو الشيخ والشيخ نحو المريد .

جـ - كيفية الدخول فى الفرقة .

د - مراتب أفراد الفرقة التى يتدرجون فيها الواحد بعد الأخر ليصلوا بعدها إلى القمة ، حيث القطب أو الولى .

هـ - القطب أو الولى ونظريات الولاية .

أ - علاقة المريد بالشيخ :

يقول الأستاذ أبو على الدقاق أستاذ القشيرى « الشجر إذا نبت بنفسه ولم يستنبته أحد ورّق ، ولكنه لا يثمر ، كذلك المريد إذا لم يكن له أستاذ يتخرج به لا يجىء منه بشئ .... [(١)] .

فالصحبة الصوفية أعم من مجرد التلمذة أو الإتباع . وإنما هى من قبل الشيخ تعهد وارشاد ومراقبة دقيقة ومحاسبة للمريد وتصحيح أوضاع ونقد وتعليم وتبصير بأسرار الحياة الروحية وهى أيضاً محبة وعطف وإشفاق وأخذ بالصرامة والعنف حيث تجب الصرامة أو العنف .... وهى من جانب المريد طاعة وحب وتفويض وفناء فى شخصية الشيخ المرشد وبهذا يستطيع

---

(١) الرسالة القشيرية : مطبعة أولاد صبيح بالأزهر - طبع القاهرة سنة ١٩٦٦

الشيخ أن يوجه الطاقة الروحية الكامنة عند المريد ويخرجها من القوة إلى الفعل على الوجه الذى يحقق لها ثمرتها ... [١] .

يقول القشيرى فى رسالته : لما أثبت سبحانه للصديق رضى الله عنه الصحبة أنه أظهر عليه الشفقة فقال تعالى : ﴿ إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ﴾ ، فالحُرْ شفيق على من يصحبه .

ويلاحظ على هذا النص الذى أورده القشيرى فى رسالته أن الصحبة أمر أساسى لدى الصوفية وهى حسب التعبير الإجمالى العلاقة الاجتماعية التى تربط بين فرد وآخر .. وهو يدلل على أهمية الصحبة بإرادة قول الله تعالى : ﴿ ثانى اثنين أو هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ﴾ فيتخذ من تأييد الله لصحبة الرسول ﷺ لأبى بكر ركيزة للصُحبة الصوفية .

وتلك الصحبة التى تنطوى أقسامها الثلاثة على مضمون الطبقية حيث يحتوى المجتمع الصوفى على طبقات متتالية لها أساس خاص بها فهو إذن تقسيم يوضح نوعية العلاقة الاجتماعية السائدة فى المجتمع الصوفى .

وأكثر العلاقات وضوحاً من هذه الأقسام الثلاثة للصحبة كما أوردها القشيرى هى علاقة المريد بشيخه وعلاقة الشيخ بمريده .

يقول السهروردى (أبو حفص) المريد الصادق إذا دخل تحت حكمة الشيخ وصحبه وتأدب بآدابه يسرى من باطن الشيخ حال إلى باطن المريد كسراج يقتبس من سراج وكلام الشيخ يلقح باطن المريد ويكون مقام الشيخ مستودع الحال وينتقل من الشيخ إلى المريد بواسطة الصحبة وسماع المقال [٢] .

---

(١) د . أبو العلا عفيفى : التصوف الثورة الروحية فى الإسلام ، طبع القاهرة ١٩٦٣

(٢) أبو حفص السهرودى : عوارض المعارف ، طبع القاهرة بدون تاريخ ، ص ٧ .

ويقول أبو يزيد البسطامى « من لم يكن له أستاذ ، فأستاذه الشيطان .. »[1] .

ب - واجبات المريد نحو شيخه ، والشيخ نحو مريده :

للصوفية آداب فى الطريق تحدد العلاقة بين الشيخ والمريدين وتعين - واجبات كل منهم وقد تختلف هذه الآداب والواجبات باختلاف المشايخ والطرق فى مسائل تفصيلية ولكنها تتفق مع الأمور الأساسية الجوهرية التى بدونها يضل السالك الطريق إلى الله .

والواجب الأول :

على المريد نحو أستاذه هو الطاعة المطلقة فى كل ما يأمر به حتى ولو خيل للمريد أنه مأمور بشىء يخالف الشرع .

الواجب الثانى :

أن يحفظ المريد سره إلا عن شيخه وأن يبوح له بكل عمل يعمله أو خاطر يخطر بباله ، يقول القشيرى « لو كتم نفساً من أنفاسه عن شيخه فقد خانه فى صحبة »[2] ولو وقعت له مخالفة غير مقصودة فيما أشار عليه شيخه ، يجب أن يبادر بالإقرار بها بين يدى الشيخ ويتعين منه ما يقرره عليه من عقوبة .

الواجب الثالث :

يقول القشيرى نقلاً عن أستاذه أبى على الدقاق : « يجب البداءة بتصحيح الإعتقاد بينه وبين الله تعالى صاف عن الظنون والشبه خال من الضلال والبدع ، صادر عن البراهين والحجج ويقبح بالمريد أن ينتسب إلى

---

(١) د . أبو العلا عفيفى : المصدر السابق ص ٢٦٧

(٢) الرسالة القشيرية ، ص ٣١٦

مذهب من مذاهب من ليس من هذه الطريقة إلا نتيجة جهلهم بمذاهب أهل هذه الطريقة ، فإن هؤلاء حججهم فى مسائلهم أظهر من حجج كل أحد وقواعد مذاهبهم أقوى من قواعد كل مذهب [1] .

الواجب الرابع :

ينبغى على المريد أن يكون مقلداً لشيوخه وأسلاف طريقته إن كان يريد الدخول فى المذهب ... والمريد الذى له إيمان إن كان من أهل السلوك والتدرج إلى مقصدهم فهو يساهمهم فيما خصوا به من مكاشفات الغيب فلا يحتاج إلى التطفل على من هم خارج عن هذه الطائفة ، وإن كان يريد طريقة الإتباع وليس بمستقل بحاله ويريد أن يعرج فى أوطان التقليد إلى أن يصل إلى التحقيق فليقلد سلفه وليجر على طريقة هذه الطبقة فإنهم أولى به من غيرهم ... [2] ...

الواجب الخامس :

يتضح فيه مدى تحقير الصوفية للجاه إذ يقول « فالواجب عليه (أى المريد) الخروج عن الجاه فإن ملاحظة الجاه مقطعة عظيمة وما لم يستوِ عند المريد قبول الخلف وردهم لا يحيى منه شئ بل أضر الأشياء له ملاحظة الناس إياه بعين الإثبات لإفلاس الناس عن هذا الحديث ، وهو بعد لم يصحح الإرادة فكيف يصح أن يترك به فخروجهم من الجاه واجب عليهم لأن ذلك سر قاتل لهم فإذا خرج عن ماله وجاهه فيجب أن يصحح عقيدته بينه وبين الله ... [3] ..

---

(١) الرسالة القشيرية ص ٣١٣

(٢) المرجع السابق ص ٣١٤

(٣) نفس المرجع ص ٣١٦

الواجب السادس :

ويحدده القشيرى فى أنه لا ينبغى على المريد أن يتسرع فى تخطى مراحل الطريق وبالتالى فإنه ينبغى عليه التدرج فى المرتب على ترتيبها فلا يرتقى إلى مرتبة إلا إذا أتم المرتبة السابقة لها حيث يرمز القشيرى إلى الطريق الذى سلكه المريد بالسفر فيقول « ينبغى على المريد أن لا يسافر قبل أن تقبلة الطريق وقبل الوصول بالقلب إلى الرب فإن السفر للمريد فى غير وقته سم قاتل ولا يصل أحد منهم إلى ما كان يرجى له إذا سافر فى غير وقته وإذا أراد الله بمريد خيراً ثبته فى أول ارادته وإذا أردا الله بمريد شراً رده إلى ما خرج عنه من مرضه أو حالته وإذا أراد الله بمريد محنه شرده فى مطارح غربته هذا إذا كان المريد يصلح للوصول ... [(١)] .

أما واجبات الشيخ فتتمثل أهميتها فيما يلى :

إن علاقة الشيخ بمريده تعتبر القسم الثانى من أقسام الصحبة التى يوردها القشيرى فهى علاقة بالتابع أى علاقة الأعلى بالأدنى وهى تقسم من قبل من هو أعلى تجاه إلى الأدنى بالشفقة ، والرحمة ، والتعهد، والإرشاد ، والمراقبة الدقيقة ، ومحاسبة المريد ، وتصحيح أوضاع ونقد وتعليم وتبصير بأسرار الحياة الروحية وهى أيضاً محبة وإشفاق وأخذ بالصرامة والعنف حيث يجب الصرامة أو العنف وهى من جانب المريد طاعة وحب وتفويض وفناء فى شخصية الشيخ المرشد [(٢)] .....

كما يجب على الشيخ ... أن يكون متفقها فى العلم . يقول الجنيد : « لو علمت أن لله علماً تحت أديم السماء أشرف من هذا العلم الذى نتكلم فيه مع أصحابنا لسعيت إليه ولقصدته ولا يصح للشيوخ التجاوز عن زلات

---

(١) الرسالة القشيرية ص ٣١٨

(٢) د . أبو العلا عفيفى : التصوف ص ٢٦٦

المريدين لأن ذلك تضييع لحقوق الله تعالى وما لم يتجرد المريد من كل علاقة لا يجوز لشيخه أن يلقنه شيئاً من الأذكار بل يجب أن يقدم التجربة له فإذا شهد قلبه للمريد بصحة العزم فحينئذ يشترط عليه أن يرضى بما يستقبله فى هذه الطريقة من فنون تصاريف القضاء والواجب على الشيخ نحو مريده كذلك أن رأى فيه كياسة أن يحيله على الحجج العقلية فإن بالعلم يتخلص لا محالة المتعرف مما يعتريه من الوساوس وأن يغرس شيخه فيه القوة والثبات فى الطريقة أمراً له بالصبر واستدامة الذكر كى تسطع فى قلبه أنوار القبول وتطلع فى سراه شموس الوصول وعن قريب يكون ذلك [1] .

جـ - كيفية الدخول فى الفرقة :

هناك مجموعة من المراسم ينبغى على المريد اتباعها من أجل الدخول للفرقة والمشايخ لهم وحدهم الحق فى أن يأذنوا للمريدين الذين تم استعدادهم بأن يأخذوا عهد الطاعة لهم وهو عهد كانوا يطالبون به كل من أراد الدخول فى طريقهم .

أما المدة التى يقضيها المريد قبل أن يؤذن له بالعهد فهى ثلاث سنوات يصفها الهجويرى على النحو الآتى « يقضى المريد السنة الأولى فى خدمة القوم (الصوفية) ، والثانية فى خدمة الله ، والثالثة فى مراقبة قلبه . ولا يقوم بواجبه نحو القوم حتى يقف منهم موقف العبد من سيده فيؤثرهم جميعاً على نفسه ويعتبرهم خيراً منه ويعد من واجبه خدمة الكل على السواء ولا يكون فى خدمة الله حتى يجرد نفسه عن كل رغبة تتصل بالدنيا أو بالآخرة ويعبد الله لذاته ولا يراقب قلبه حتى يحصر جميع همه

---

(١) الرسالة القشيرية ص ٣١٦

فيما أقبل عليه ويترك كل ما يشغل باله حتى لا تتطرق الغفلة إلى قلبه فى حال مناجاته مع الله ... [1] .

وإذا ما أخذ المريد العهد خلع عليه شيخه الخرقة أو المرقعة وهى لباس مصنوع من قطع مختلفة من القماش حل فيما بعد محل لباس الصوف الذى كان يلبسه أوائل الصوفية .. وليس خلع المريد الخرقة علامة على قبوله فى الطريق ولكن قد يخلع على الصوفى خرقتان مختلفتان كما حدث لأبى سعيد بن أبى الخير ... [2] .

إن الخرقة ترمز إلى أخذ مريد عن شيخه والمعنى الملحوظ فى خلع الخرقة على المريدين أن يد الشيخ تنوب عن يد النبى ﷺ لأن تسليم المريد للشيخ تسليم لله ورسوله وهم يسمون الزمن الذى يمضيه المريد فى صحبة الشيخ وتحت رعايته زمن الإرتضاع . والشيخ يعلم متى يحين آوان الفطام للمريد فلا ينبغى للمريد أن يفارق الشيخ حتى يأذن الله [3] .

وقد رأى الصوفية لكل طائفة لباساً خاصاً يميزها كالسواد للعباسيين والخضرة للعلويين ، والثياب المصفرة للغراء وأوائل الفتيان والسراويل للفتيان المتأخرين [4] ..

د - مراتب الصوفية (طبقات المجتمع الصوفى) :

إذا أيقن الشيخ صدق توبة المريد قبل صحبته والإشراف عليه ، وراقبه فى مراحل الطريق التالية وقد اصطلح الصوفية على تسمية هذه المراحل

---

(1) الهجويرى : كشف المحجوب ترجمة نيكلسون ١٩١١ م ص ٥٤

(2) نيكلسون : التصوف الإسلامى ص ٧٨

(3) د . كامل الشيبى : الصلة بين التصوف والتشيع جـ ٢ ، ص ١١٥

(4) د . كامل الشيبى : المرجع السابق ص ١١٥

بالمقامات وسموا ما يعرض فيها للسالك من أحداث روحية باسم الأحوال ..
وقد ذكر أبو نصر السراج فى كتاب اللمع « وهو أقدم كتاب عربى فى التصوف » سبعة من هذه المقامات هى : التوبة ، والقناعة ، والزهد ، والفقر ، والصبر ، والتوكل ، والرضا ، كما ذكر عشرة أحوال أهمها الذكر، والقرب ، والمحبة ، والرجاء ، والشوق ، والانس ، واليقين ، والمراقبة والسكون .

ولا ينتهى الطريق إلا بقطع السالك للمقامات كلها ولا ينتقل السالك من واحد منها إلى الآخر إلا إذا كان قد وصل إلى درجة الكمال فى المقام السابق فإذا اجتاز جميع المقامات انتقل إلى مرتبة روحية أعلى هى مرتبة المعرفة والشهود وكمال المعرفة « من يدرك الصوفى ذوقاً وحده العارف والمصروف » (١) .

وهناك مراتب مختلفة يترقى خلالها الصوفى الذى بلغ شوطاً عظيماً فى الطريق تتخذ شكلاً هرمياً مقدساً يبدأ من القطب ويتفرع إلى الابدال والأوتاد ، والأفراد ، والركبان ، والملامتية .

ويرى أحمد أمين « أن للصوفية مملكة باطنة وراء المملكة الظاهرية اتخذوا فيها فكرة المهدى وغيروا ألفاظها وكملوا نظامها (٢) .

ويلاحظ هنا أن الصوفية قد وضعوا منهجاً فسروا به القرآن وأحاديث الرسول تفسيراً باطنياً خاصاً بهم يختلف عن ذلك الذى وضعته الإسماعيلية الباطنية إلا أن الصوفية فى مملكتهم الروحية يقتربون من الشيعة إلى حد كبير بل أن هناك وجه شبه كبير بين القطب الصوفى والإمام الشيعى وأشار

(١) د . أبو العلا عفيفى : التصوف ص ٢٦٩

(٢) أحمد أمين : ضحى الإسلام ، جـ ٣ ص ٢٤٥

نيكلسون إلى نص ورد فى تذكرة الأولياء عن يحى بن معاذ الرازى .. المتوفى سنة ٢٥٨ هـ القائل « إذا رأيت الرجل يشير إلى الآداب والكرامات فطريقه طريق أهل المحبة وهو أعلي من الذى قبل ، وإذا رأيته يشير إلى الذكر فطريقه طريق العارفين ... [١] .

ويروى عن ابن عمرانه .. روى حديثاً عن الرسول ﷺ يقول فيه « خيار أمتى فى كل قرن خمسمائة والابدال أربعون فلا الخمسمائة ينقصون ولا الإبدال ، كلما مات رجل أبدل الله عز وجل من الخمسمائة مكانة وادخل من الأربعين مكانهم [٢] ...

ويعرف الجرحانى البدل أن « البدلاء هم سبعه رجال : من سافر من موضع وترك جسداً على صورته حياً بحياته ظاهراً بأعمال أصلة بحيث لا يعرف أحداً أنه فقد وذلك هو البدل لا غير وهو فى تلبسه بالأجساد والصور على صورته على قلب إبراهيم عليه السلام .. [٣] .

أما محى الدين بن عربى فإنه يقول فى الإبدال وهم سبعة ولا يزيدون ولا ينقصون يحفظ الله لهم الأقاليم السبعة لكل منهم إقليم فيه ولايته .. وهم عارفون بما أودع الله سبحانه وتعالى فى الكواكب السيارة من الأمور والأسرار فى حركاتها ونزولها فى المنازل المقدرة ولهم من الأسماء أسماء الصفات ... [٤] .

وشرح السبب فى تسميتهم كذلك بقوله « وسمى هؤلاء إبدالاً لكونهم

---

(١) اللمع ص ٢٣٧ تذكرة الأولياء جـ ١ ص ٢٦٣

(٢) حلية الأولياء جـ ١ ص ٨ ، ٩

(٣) الجرجانى : التعريفات ص ٣٧

(٤) محى الدين بن عربى : (الفتوحات الملكية) ص ٢ - ٩

إذا فارقوا موضعاً ويريدون أن يخلفوا به بدلاً منهم فى ذلك الموضع لأمر فيه مصلحة وقربه يتركون به شخصاً على صورتهم لاشك أحد ممن أدرك رؤية ذلك الشخص إنه عين ذلك الرجل وليس هو بل روحانى يتركه بدله بالقصد على علم منه فكل من له هذه القوة فهو البدل [1] ... وفى القرن الخامس الهجرى نجد الهجويرى يحدد مراتب الصوفية بقوله : « أن هناك طبقات أخرى من الأولياء ، فهناك ثلاثمائة يسمون الأخيار ، وأربعون يسمون الإبدال وسبعة يسمون الأبرار وأربعة يسمون الأوتاد وهم يطوفون العالم بجملته كل ليلة وثلاثة نقباء وأخيراً يوجد القطب أو الغوث .. [2] ...... وقد عرف الجرجانى الأوتاد بأنهم أربعة رجال على منازل الأربعة الأركان ، والعالم شرق وغرب وشمال وجنوب ... [3] ... ويقول فيهم ابن عربى « أعلم أن الأوتاد الذين يحفظ الله العالم بهم أربعة لا خامس لهم وهم أخص من الأبدال ..[4] ... ولكن ابن عربى يمزج الأوتاد بالأبدال وغيرهم من أصحاب المراتب الصوفيه وجعل الطبقة التى تجمعهم كلهم طبقة الأبدال على اعتباراتهم « أعطوه القوة لأن يتركوا بدلهم حيث يريدون ولأمر يقوم فى نفوسهم على علم منهم فليس أصحاب هذا المقام [5] . ويلى الامتداد النقباء وهم إثنا عشر نقيباً فى كل زمان لا يزيدون ولا ينقصون وهم على عدد البروج الإثنى عشر ، كل نقيب عالم بخاصة كل برج وبما أودع الله تعالى فيه من الأسرار والتأثيرات وما يعطى للنزلاء به من الكواكب السيارة والثوابت ... واعلم أن الله قد جعل بأيدى هؤلاء النقباء

---

(١) المرجع السابق - نفس الموضوع .

(٢) الهجويرى : كشف المحجوب .

(٣) الهجويرى : كشف المحجوب .

(٤) الجرجانى : التعريفات ص ٣٨ .

(٥) المصدر نفسه جـ ٢ ص ١ .

(٦) المصدر نفسه جـ ٢ ص ١ .

علوم الشرائع المنزلة ولهم استخراج خبايا النفوس وغوائلها ومعرفة منكرها وخداعها [1] ..

ثم نجد النخباء وهم ثمانية فى كل زمان ولا يزيدون ولا ينقصون وهم الذين تبدو منهم وعليهم أعلام القبول وأحواله - وإن لم يكن لهم فى ذلك اختيار لكون الحال تغلب ولا يعرف ذلك لا من فوقهم ولا من دونهم وهم أصل الصفات الثمانى السبع المشهورة والإدراك الثامن « وهكذا تتدرج المراتب كالرحبين والركبان والملامتيه والأفراد حتى تصل إلى القطب .. [2] .

هذه هى المراتب الصوفية التى يتدرجون فيها المرتبة تلو الأخرى ، ومن الملاحظ فى هذه المراتب إنها تبدأ من القاعدة الهرمية بالرجبيين والركبان والملامتيه والأفراد ثم تليهم المرتبة الأعلى وهى مرتبة الإبدال ثم مرتبة الأوتاد التى تليها مرتبة النقباء التى تعلوها مرتبة النجباء وهنا نصل إلى قمة التنظيم حيث القطب أو الغوث كما يسميه الجرجانى .. [3] .

أولئك هم الواصلون والذين يمكن أن نطلق عليهم « الأولياء » .

* * *

---

(1) المصدر السابق جـ ٢ ص ١٠ .

(2) الشيبى : الصلة بين التصوف والتشيع ص ١٦٢

(3) الجرجانى : التعريفات ص ١٥٥

الفصل السادس
بعض نظريات فى الولاية

أ - الولاية أو الولى من حيث المعنى :

استعملت كلمة ولى فى اللغة بمعناها العام ، ثم جاء القرآن الكريم فاستعملها أيضاً بذلك المعنى العام « الجامع بين ناحيتى الخير والشر » .

ففى القاموس المحيط ورد لفظ (الولى) بمعنى القرب والدنو ، والمطر بعد المطر « والولى » الاسم منه والمحب والصديق والنصير « الولاية » الإمارة والسلطان ، « والولى » المعتق والمعتق والصاحب ، والولى والرب والناصر والمحب [1] ...

ويذكر ابن تيمية هذا المعنى اللغوى فى كتابه « الفرقان يبين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان » ... ثم يثنى بقوله : « وقد قيل إن الولى سمى ولياً من موالاته للطاعات أى متابعته لها » ، ويقابل بين الولى والعدو على أساس من القرب والبعد ... [2] .

وقد جاءت كلمة « ولى » فى القرآن بمشتقاتها أربعة وخمسين مرة منها ثمانية عشرة فى جانب أولياء الله وستة وثلاثين فى جانب أولياء الشيطان وأعداء الله .. [3] ...

---

(١) القاموس المحيط جـ ٤ ص ٤٠١ .

(٢) ابن تيمية : رسالة الفرقان بين الحق والباطل ، ص ٥

(٣) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن (مادة ولى) .

ومن ذلك قوله تعالى ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون ... ﴾ [1] وقوله تعالى : ﴿ هنا لك الولاية لله الحق ﴾ [2] .. وقوله تعالى أيضاً : ﴿ ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا ﴾ ... وقد جاءت هذه الكلمة فى الايات بمعانيها التى وردت فى القاموس وإن أحيطت بما يفسرها فى ذلك المقام من الشرعيات أو ربما يتفق مع جوها العالم الذى جاءت فيه .

ويفسر ابن جرير الطبرى الأولياء فى قوله تعالى : ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ بأنهم أنصار الله ، والأولياء جمع ولى وهو النصير وقد بينا ذلك بشواهده [3] .... ثم ينقل الطبرى ما روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قوله : قال رسول الله ﷺ : « أن من عباد الله لا ناسا ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله » قالوا يا رسول الله : اخبرنا من هم وما أعمالهم ؟ فإنا نحبهم لذلك ، قال : « هم قوم تحابوا فى الله بروح الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها فوالله أن وجودهم لنور وإنهم لعلى نور لا يخافون إذ خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس » وقرأ هذه الآية : ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ [4] ...

ثم يعلق على هذا والصواب من القول فى ذلك أن يقال « المولى أعنى ولى الله هو من كان بالصفة التى وصفه الله بها وهو الذى آمن واتقى كما قال الله تعالى : ﴿ الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ [5] .

---

(١) يونس : ٦٣ (٢) الكهف : ٤٤

(٣) تفسير الطبرى جـ ١٥ ص ١١٨

(٤) المصدر السابق ص ١٢١

(٥) ابن كثير جـ ٢ ص ٤٢٢

ويتخذ القشيرى من الآية ﴿ ألا إن الأولياء لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ سنداً يفسر به معنى الولاية والولى لدى الصوفية فيقول فى رسالته : الولى له معنيان أحدهما : فعل بمعنى مفعول وهو من يتولى اللّٰه سبحانه أمره. قال اللّٰه تعالى أنه يتولى الصالحين فلا يسلكه إلى نفسه لحظة بل يتولى اللّٰه سبحانه أمر رعايته أنه يتولى . والثانى : مفعل مبالغة من الفاعل وهو الذى يتولى عبادة اللّٰه وطاعته فعبادته تجري على التوالى من غير أن يتخللها عصيان وكلا الوصفين واجب حتى يكون الولى ولياً يجب قيامه بحقوق اللّٰه تعالى على الاستقصاء والاستيفاء .

واختلفوا فى أن الولى هل يجوز أن يعلم أنه ولى أولاً فمنهم من قال .. لا يجوز ذلك . وقال أن الولى يلاحظ نفسه بعين التصغير وإن ظهر عليه شيء من الكرامات خاف أن يكون مبكراً وهو يستشعر الخوف دائماً أبداً، وإنما يخاف سقوطه عما هو فيه ، وأن تكون عاقبته بخلاف حاله وهؤلاء يجعلون من شرط الولاية وفاء المآل .. يقول أبو يزيد : أولياء اللّٰه عرائس اللّٰه تعالى ولا يرى العرائس إلا المحرمون فهم مخدرون عنده فى حجاب الانس لإيراهم أحد فى الدنيا ولا فى الآخرة ... (١) ...

ومن هذا .. يتضح أن جمهور الصوفية يطلقون اسم « الولى » على الصوفى الذى حصل فى مقام القرب من اللّٰه بفضل قداسته وورعه وفنائه فى محبة ربه ، ويعتبرون الولاية والنبوة مرتبتين مختلفتين إلى حد أنه يمكن المفاضلة بينهما **وإذا قالوا أن الصوفية خاصة المسلمين والأولياء خاصة الصوفية فمعنى هذا أن الأولياء خاصة المسلمين ، وأن الولاية أعلى مرتبة روحية يصل إليها المسلم ...(٢) .**

---

(١) الرسالة القشيرية ص ٢٠١ وما بعدها .

(٢) د . أبو العلا عفيفى : التصوف ص ٢٩٣

ب - الأدلة التى تحدد مكانة الولى لدى الصوفية :

تتحدد مكانة الولى لدى الصوفية بها بما أقروه من نظريات فى وحدة الوجود والفناء والحلول إذ أن مراتبهم تتحدد بحسب اقترابهم من الله سبحانه وتعالى فكلما ارتقى الصوفى إلى مرتبة أعلى كلما ازداد تقربا لله تعالى ويظل الصوفى يتجه نحو الله حتى يصل إلى الدرجة الفعلية التى تجعله لا يكتفى بمجرد الاتصال بالله بل تجعله يدعى الاتحاد بالله ، وهذا فى حد ذاته دليل على سمو مكانة الأولياء فى نظرهم ، وهذا الاتحاد بالله يتم على ثلاث صور أما بالفناء فى الله ، أو بادعاء أن الله قد حل فى نفوسهم ، أو بإعلان وحدة الوجود ، وأدلتهم على هذه المكانة يستنبطونها من القرآن الكريم ، وبعض الأحاديث النبوية والقدسية يكفى ما سبق من ذكر الآيات والأحاديث التى اشتقوا منها مكانة الولاية لديهم .

وقد وردت مادة « ولى » وأولياء فى عدد غير قليل من الآيات القرآنية ووصف الله تعالى نفسه بأنه ﴿ ولى الذين آمنوا ﴾ ﴿ وولى المؤمنين ﴾ ﴿ وولى المتقين ﴾ ..... إلخ الآيات الكريمة .

ولقد دلل الصوفية على مكانة الولي ولقد ظهرت المفاضلة بين الإنسان والملائكة فى الفكر الإسلامى بوجه عام والفكر الصوفى بوجه خاص ، وكان مبعثها من غير شك ما ورد فى القرآن من قصة آدم ومطالبة الله الملائكة بالسجود له . والقرآن صريح فى أن « الإنسان » الذى اختاره الله خليفة فى أرضه وأسجد الملائكة تعظيماً له ، أفضل من الملائكة بما أودع الله منه من الصفات وما علمه من الأسماء قال تعالى : ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة ..﴾ وقوله تعالى : ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها

ثم عرضهم على الملائكة فقال انبئونى باسماء هؤلاء إن كنتم صادقين قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العزيز الحكيم .. ﴾ (١).

وليست هذه الأسماء إلا الصفات التى أودعها الله آدم وذريته ولم يودعها كلها - بل أودع بعضها - فى الملائكة ولهذا كانت طبيعة الإنسان أكمل وأتم ومرتبته فى سلم الوجود أعلى من طبيعة الملائكة ، لأن فيه نزعات الخير التى تمثل فيها الجمال الإلهى ، ونزعات الشر التى يتجلى فيها الجلال الإلهى فى حين أن الملائكة ليس فيهم من هذه الأخيرة شئ فهم مجبولون على الطاعة والعبادة ... لا تجد المعصية إليهم سبيلاً ... لأنهم لم تتهيأ لهم أسبابها أما الإنسان فبذور الشر والمعصية أصيلة فى جبلته فإذا غالب شهوته وهواه وكبح جماح نفسه وانتهى به الأمر إلى الطاعة ، كان أفضل من الملائكة (٢) .

وعلى ذلك فأولياء الصوفية يقومون بجهاد نفسى كبير ، .... يصلون فيه إلى الإنتصار الحاسم على كل بذور الشر الدنيوية فى نفوسهم وبالتالى يصلون إلى مكانة الملائكة بجهد ذاتى خالص فى التقريب إلى الله ... ويتصورون أن الجائزة التى يستحقونها على انتصارهم فى جهادهم الشاق مع أنفسهم هى الاتصال بالله أو الإتحاد به والفناء فيه إلى غير ذلك من النظريات التى يحددون بها مكانتهم من الله والتى يعتبرونها منحة إلهية يحصلون عليها من الله تعالى .

جـ - صفات الولى :

. الولى رجل مشغول بالله ، يقضى حياته فى صحبة مولاه رجل

---

(١) البقرة : ٣١ ، ٣٢

(٢) د . أبو العلا عفيفى : التصوف ص ٣٠٣

تجرد عن شهواته ... وعن علاقته بنفسه ... وبالعالم حوله ... ومن المحتم على من وصل إلى هذه المرتبة وتهيأت نفسه هذا التهيؤ الروحانى ألا يدخل فى حياته المنعزلة عن مجرى التجارب الإنسانية العادية إلا الأفكار والخواطر التى تتفق وهذه الحياة .

● ويمكن إجمال أهم صفات الولى فيما يلى ... (١) :

١ - من أوائل هذه الصفات وأقدمها أن الولى شخص يؤيده الله وينصره ظهر هذا المعنى فى الإسلام قبل ظهور التصوف وأولياء الصوفية - كما قلنا - أى ظهر منذ ابتداء الدعوة إلى الإسلام وكان معنى الولاية نصرة الله للعبد لنصرته لدين الله فالذين جاهدوا فى الله كانوا أوليائه ، وكذلك الذين انفقوا واخلصوا فى دينهم وكذلك الذى اضطهدتهم قريش وآذتهم من أجل إسلامهم كل هؤلاء كانوا أولياء لله حسب النصوص القرآنية الواردة فيهم - كما أوضحنا - .

٢ - من الصفات القديمة للولى أيضاً إكرام الله إياه ، ويظهر هذا الإكرام فى مظاهر شتى أخصها الكرامات التى تتأيد بها ولايته وتعرف بها منزلته وقد أشار القرآن إلى ظهور هذه الكرامات وخوارق العادات على يد من اختصهم بالولاية . فاتخذه الصوفية من ذلك سنداً يستندون إليه فى دعوى ظهور مثل هذه الخوارق على أيديهم من ذلك قوله تعالى فى سورة آل عمران ﴿ كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم : إنى لك هذا قالت هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ (آل عمران : ٣٧) .

٣ - وإذا نظرنا إلى الولى من وجهة نظر الصوفية ، قلنا أن أخص

---

(١) المصدر السابق ص ٢٩٧ وما بعدها .

صفاته وأبرزها أنه رجل فنى فى الله واستهلك فيه أو أنه المجذوب فى حب الله . والفناء عند الصوفية نهاية الطريق وعتبة الوصول إلى الله ، وباب الولاية ومقامها فالولى فى نظرهم هو من استولى عليه سلطان المحبة الإلهية فلم يترك فى قلبه متسعاً لغير محبوبه وهو الذى تجرد عن إرادته وصولته وقوته ، وأصبح لا يشعر بوجود غير وجود الحق وهو الصوفى الفانى عن وجود الباقى بالحق سئل أبو بكر الواسطى عن الولى كيف يغذيه الله فقال : « فى بدايته بعبادته وفى كهولته بستره ولطافته ثم يجد به إلى ما سبق له من لغوته وصفاته ثم يذيقه طعم قيامه به فى أوقاته »[1] فالأولى درجة العبادة وهى أول الطريق ومرتبة المبتدئين من المريدين والثانية درجة ستره عن الناس بإنقطاعه إلى الله وشغله به عمن سواه ، وفى هذه المرتبة يغذى الله وليه بستره ولطفه ، والثالثة درجة يظهر الله فيها للولى بما سبق أن قدره له من الصفات فهى درجة تعريف الولى بولايته وإيقافه على منزلته والرابعة درجة يذيقه الله فيها قيامه به ويكشف له فيها إنه السامع منه إذا سمع ، والمبصر منه إذا أبصر ، والباطش منه إذا بطش وهكذا قال تعالى مخاطباً النبى ﷺ « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » وهذا هو الفناء الصوفى بعينه .

٤ – ومن صفات « الولى » أن يكون محفوظا « كما أن من صفات النبى أن يكون معصوماً » أى محفوظاً ومعصوماً من مخالفة الشرع لأن كل من كان معترضاً فهو مغرور مخدوع كما يقول القشيرى ومعنى هذا الشرط أن كلا من النبى والولى لا يعص الله ولا يأتى بما يتعارض مع الشرع ولكنهما يختلفان ... فعدم العصيان فى النبى راجع إلى العصمة وهى

(١) الرسالة القشيرية ص ٢٠٦ .

أمر يخلقه الله فى النبى ، فهو لا يعصى ربه لأن الله وهبه قوة يدرأ بها العصيان أو وهبه مناعة من العصيان أما الولى فهو إنسان كسائر الناس فيه المقدرة على أن يعصى وأن يطيع ولكن الله يحفظه من المعصية بأن يبعث فى قلبه نوراً يهديه ويصرفه عنها .

فالفرق بينهما كالفرق بين رجلين يمرضان بمرض معين ، ولكن أحداهما لا يمرض لمناعة طبيعية فى جسمه ، أما الأخر فلا يمرض لتناوله شيئاً من الدواء يحميه من المرض ، لو تخلى عن تعاطى هذا الدواء سقط فريسة للمرض والظاهر أن التفرقة بسبب العصمة والحفظ مسألة أثارها متأخروا الصوفية وأن الأصل كان العصمة لكل من النبى والولى للنبى أولاً ، وللولى بالوراثة الروحية ثانياً والله لا يحفظ الولى من المعصية وحدها ، بل من كل ما يكون للشرع عليه اعتراض وبذلك يدخل فى الأشياء التى يحفظ الله الولى منها ، كل مخالفة لآداب الشرع وإن لم تكن معصية ، قيل : قصد أبو يزيد البسطامى بعض من وصفوا بالولاية فلما وافى مسجده قعد ينتظر قدومه ، فخرج الرجل وتنحى فى المسجد فانصرف أبو يزيد ولم يسلم عليه، ... وقال : هذا رجل غير مأمون على أدب من آداب الشريعة فكيف يكون أميناً على أسرار الحق (١) ....

٥ - وآخر صفات الولى « الشفاعة » فقد أدعى صوفية المشرق خاصة أن الأولياء شفعاء عند الله فى الخلق يوم القيامة وجهروا بذلك بين الناس وبالغوا كل المبالغة بل أنهم ادعوها لأنفسهم سواء أكانوا من الأولياء أم لم يكونوا أو على الأقل ادعاها الكثيرون منهم ومنحوا الحق فيها لتلاميذهم

---

(١) الرسالة القشيرية - نفس الموضع .

قال بعضهم « ليس من تلاميذنا من لم يكن يوم القيامة شفيع أهل النار ويدخلهم الجنة » روى هذا أو مثله عن حاتم الأصم وأبى يزيد البسطامى [1] .

د - القطب :

وهو عند الجرجانى « قد يسمى غوثاً » ... [2] ... وهو « الواحد الذى هو موضع نظر الله فى كل زمان أعطاه الطلسم الأعظم من لدنة وهو يسرى فى الكون وأعيانه الباطنية والظاهرة سريان الروح فى الجسد بيده قسطاس الفيض الأعم وزنه يتبع علمه ، وعلمه يتبع الحق وعلم الحق يتبع الماهيات الغير مجهولة ... [3] ... ويرى أن عربى فى الأقطاب « لا يكون منهم فى الزمان إلا واحداً وهو الغوث أيضاً وهو من المقربين ، وهو سيد الجماعة فى زمانه » [4] .

وبذلك .. يكون القطب رئيساً .. زمنياً ولذلك قال : الأقطاب كلهم عبد الله والأئمة فى كل زمان عبد الملك وعبد الرب وهما اللذان يخلفان القطب إذا مات وهما للقطب بمنزلة الوزيرين [5] ... ونقل نيكلسون عن عفيف التلمسانى فى شرحه على مواقف النفرى أن « مرتبة ... القطب هى مرتبة الإنسانية الكاملة وله أن يهدى الناس إلى سبيل ربه ولا يطلب على ذلك إذنا من أحد .. وقبل أن يوصد باب النبوة كان يدعى نبياً فأما فى أيامنا فإنه يدعى شيخاً ... » [6] .

---

(١) المصدر السابق ص ٢.٨

(٢) الجرجانى : التعريفات ص ١٥٥

(٣) المصدر السابق : نفس الموضع

(٤) ابن عربى : الفتوحات الملكية ٧/٢

(٥) المصدر السابق ٨/٢

(٦) نيكلسون : التصوف الإسلامى ص ١٥٤

وإذا كانت المفاضلة بين الإنسان والملائكة قد أثبتت أن الإنسان الخير أفضل من الملائكة فإن الأنبياء أفضل البشر من باب أولى وذلك لأن الأنبياء خاصة البشر ، وهذا ما ذهب إليه أهل السنة وجميع مشايخ الصوفية .

هـ - صور القطب عند الصوفية :

١ - ابن عربى والحقيقة المحمدية :

يعتبر ابن عربى ما يسميه (الحقيقة المحمدية) أو الروح المحمدى أصل الحياة الروحية فى الوجود والمنبع الذى يستمد منه الأنبياء والأولياء علومهم أو الروح الذى ظهر فى صور الأنبياء والأولياء من لدن آدم إلى النبى محمد نفسه كما ظهر فى صورة الأولياء منذ وجدت الولاية فجميع الأنبياء والأولياء صور أو مجال تجلت فيها الحقيقة المحمدية أو الروح المحمدى أو النور المحمدى كما يسميه أحياناً وليس خاتم الأولياء سوى مجلى من المجالى التى لا تحصى بهذه الحقيقة أما الفرق بين ختم الأولياء وأى ولى آخر فهو أن خاتم الأولياء دون غيره هو المظهر الكامل للحقيقة المحمدية والمجلى الذى تتمثل فيه هذه الحقيقة أكمل تمثيل ومنه يظهر الإرث المحمدى ظهوراً تاماً وهو آخر من ورث عن الحقيقة المحمدية علم الباطن إرثاً مباشراً .

ويعقد ابن عربى مقارنة دقيقة بين الروح المحمدى وروح خاتم الأولياء. ويقول أن كلا منهما له وجود سابق على وجوده الزمنى فكما أن محمداً كان نبياً وآدم بين الماء والطين كذلك كان خاتم الأولياء ولياً وآدم بين الماء والطين . ولكن أليست روح خاتم الأولياء هى بعينها الروح المحمدى فى نظير ابن عربى وإننا نسميها « محمداً » حين تظهر فى صورة النبى محمد ، وخاتم الأولياء وأن الأول نبى ورسول وولى والثانى ولى وارث .

والظاهر أنه يقصد روح خاتم الأولياء لا شخصية عندما يقول أنه الممد

لسائر الأولياء والأنبياء والرسل بعلمهم الباطن يقول « وليس هذا العلم إلا لخاتم الرسل أو خاتم الأولياء -وما يراه أحد من الأنبياء والرسل إلا مشكاة الرسول الخاتم ولا يراه أحد من الأولياء إلا من مشكاة الولى الخاتم حتى أن الرسل لا يرونه - متى رآوه - إلا من مشكاة خاتم الأولياء [(١)] .

ويتضح ... من نظرية ابن عربى هذه وحدة الوجود بأجلى معانيها ، وخاصة فى صورة القطب الذى يحكم العالم عبر الأزمنة المختلفة بروح واحدة تتمثل فى أشخاص عديدين لتنتهى أكمل صورها حيث تتمثل فى خاتم الأولياء .

٢ - الجيلانى ونظرية الإنسان الكامل :

يعرض لها عبد الكريم الجيلانى بقوله :

أعلم .. أن الإنسان الكامل نسخة الحق تعالى كما أخبر صلى الله عليه وسلم حيث قال : « خلق الله آدم على صورة الرحمن ». وفى حديث أخر: خلق الله آدم على صورته » وذلك أن الله تعالى حى عالم قادر سميع بصير متكلم وكذلك الإنسان حى عليم ثم أعلم أن الإنسان الكامل هو الذى يستحق الأسماء الذاتية والصفات الإلهية استحقاق الأصالة والملك بحكم المقتضى الذاتى فإنه المعبر عن حقيقته بتلك العبارات والمشار إلى لطيفته تلك الإشارات وليس لها مستند فى الوجود إلا الإنسان الكامل . فمثاله للحق مثال المرآة التى لا يرى الشخص صورته إلا فيها وإلا فلا يمكنه أن يرى صورة نفسه إلا بمرآة الاسم (الله) فهو مرآته والإنسان الكامل أيضاً مرآة الحق فإن الله تعالى أوجب على نفسه ألا ترى اسماؤه وصفاته إلا فى الإنسان الكامل [(٢)] ......

---

(١) ابن عربى : الفتوحات المكية : ٣٦/٢

(٢) عبد الكريم الجيلانى : الإنسان الكامل ، طبع القاهرة سنة ١٩٨٣ ، جـ ٢ ص ٤٨

وليس العالم إلا صورة الحقيقة كما أن الحقيقة المحمدية ليست إلا صورة الله ... فالإنسان الكامل هو (العالم الأصغر) والعالم نفسه هو العالم الأكبر ولهذا قال بعضهم فى وصف الإنسان الكامل (الحقيقة المحمدية) ...

كل جمال فى الوجود مستعار من جماله متقوم به ، فجماله هو الشاهد فى كل جمال ونوره هو الشاهد فى كل نور الشمس والقمر والنجوم وعلى الذين يحبون النبى أن يشاهدوا كماله فى كل ما هو جميل ويتأملوه ويقدسوه ويثنوا عليه بألسنتهم .

وقد كان شيخ من شيوخنا كلما وقع نظره على شئ جميل أو فكر فى شئ جميل يقول : « صلى الله عليك يا رسول الله » .

أما الجيلانى فإنه يتحدث عن فكرة الإنسان الكامل بأسلوب حلولى على اعتبار أن الله خلق الإنسان على صورته فأودعه صفاته وبالتالى فالإنسان إلهى فى طبيعته وصفاته وهو إذن المثل الأعلى لجميع البشر حيث ينبغى على كل أفراد البشرية محاكاته وهنا نجد الصوفية يحاولون الوصول إلى مرتبة هذا الإنسان الكامل تشبهاً به حيث يتمثل فى الحقيقة المحمدية وهذا وجه الإتفاق بين الجيلى وابن عربى .

* * *

الخاتمة

مما سبق نخلص إلى أن هناك أوجه شبه عديدة بين مفهوم الإمام عند الشيعة ... ومفهوم القطب عن المتصوفة حيث يبدو الأثر الشيعى واضحاً فى غلاة الصوفية المتأخرين على النحو الآتى :

١ - أن محى الدين بن عربى قد أخذ بالجانب الفلسفى من نظريته فى وحدة الوجود عن رسائل أخوان الصفا فلابد أن نجد ارتباطاً بينه وبين هذه الرسائل فى فكرة الإنسان الكامل ، وأول ما يلوح للذهن أن عبارة « الإنسان الكامل » قريبة من « الإنسان الفاضل » المتصل « بالمدينة الفاضلة الروحية » التى يرد ذكرها فى رسائل أخوان الصفا باعتبارها المثل الأعلى للمجتمع الروحى المرتب الخالى من شوائب النفس وتسمى رسائل الاخوان « بالفضلاء » أيضاً كما درج الصوفية فيما بعد على وصف الصوفية بالكمال ، ومما يذكر أن ابن عربى قد تطرق إلى فكرة « المدينة الفاضلة » على الأساس الذى عرض له الإسماعيلية ووصفها بالمدينة الفاضلة الذهبية الكاملة التى من وصل إليها ودخل فيها لم يقبل الميل ، أو الاستغناء عنها [١] .

٢ - أن مفهوم علم القطب على أنه هو العلم الحق ، وأنه ينبغى أن يكون محفوظاً لدى الصوفية تبدو متأثرة تأثيراً كبيراً بفكرة الإمام الشيعى الذى يجب أن يكون علمه الحق ، وأن

---

(١) د . كامل الشيبى : الصلة بين التصوف والتشيع ص ١٦٤ .

يكون معصوماً ، فالحفظ لدى الصوفية تقابله العصمة لدى الشيعة ، وبالتالى فإن الصوفية قد جعلوا من القطب إماماً لهم كالشيعة تماماً .... ولكن وجه الاختلاف .. (بين القطب الصوفى والإمام الشيعى) هو أن الإمام الشيعى يحصل على إمامته بالوراثة على اعتبار أنه ينتسب إلى البيت العلوى أما القطب الصوفى فلا يتوافر فيه هذا الشرط ، إذ أن الصوفية يعتقدون أن القطب منحه إلهيه يهبها الله لمن يشاء دون تميز .

٣ - من السمات العامة المشتركة بين جميع أفكار الإمامة والولاية ما يلى :

(أ) الإمام أو القطب كلها أسماء أطلقت على شخص واحد له صفات مقدسة نجدها واضحة لدى الإثنى عشرية والإسماعيلية الباطنية والصوفية وقد عرف لدى هؤلاء باسم (الإمام) ، (القطب) ، والصفات العامة لهذه الشخصيات هى صفات إلهية قدسية تجعل منه بديلاً للرسول ﷺ وليملأ الفراغ الذى يشغله خلفاء وحكام ضعفاء فليس بينهم مَنْ يستحق أن يشغل منصبه .

(ب) العصمة صفة عامة مشتركة بينهم إلا أنهم يختلفون فى أسلوب التعبير عنها فعصمة الإمام لدى الإثنى عشرية والباطنية تعنى قوة روحانية وموهبة فطرية مختصة بالنفوس القدسية لاستعدادها الذاتى لتحصل بها حقائق المشاهدة بقدر طاقاتها على ما كان عليها ولا يحصل معها العصيان والسهو والنسيان ، وإن كان ممكناً لها لذاتها ونجد نفس هذه الصفة لدى الصوفية متمثلة فى قولهم بأن الولى ينبغى أن يكون محفوظاً كما أن من صفات النبى أن يكون محفوظاً ومعصوماً من مخالفة الشرع .

(جـ) **تشابه الإسماعيلية الباطنية والصوفية فى القول بفكرة (الحقيقة المحمدية) وذلك استناداً إلى الحديث النبوى « كنت نوراً وآدم بين الماء والطين »** إذ يعرض الإسماعيلية ومحى الدين بن عربى لها على أنها فكرة مشتركة وإن اختلفت الإسماعيلية عنه فى تحديد الأشخاص الذين تجلت منهم الحقيقة المحمدية ووجه التشابه بينهما يتمثل فى أن النور المحمدى قد انتقل فى الأصلاب الطاهرة حيث كان نبى يعتبر مجلى من مجالى هذه الحقيقة المحمدية إلى أن يصل فى شخص سيدنا محمد ﷺ الذى تتجلى فيه الحقيقة كاملة .

(د) **انفردت نظريتا الإمامة والولاية عند الشيعة والمتصوفة بسمة « العالمية » ففكرة الإمام أو القطب بسطتها الشيعة والصوفية من منطلق كونه حاكم للعالم بأسره وليس لأمة واحدة بالذات وتجلى ذلك فى قولهم عبارات معينة مثل (إمام الزمان ، صاحب الزمان ، القطب أو الغوث)** الذى يسرى فى الكون سريان الروح فى الجسد وهو سيد الجماعة فى زمانه .

(هـ) **انعكس فكر أفلاطون عن رئيس المدينة الحاكم الفيلسوف على فكرة الإمام الشيعى الإثنى عشرية والإسماعيلية الباطنية والقطب الصوفى** ولكنها تلونت ... وانطبعت بالطابع الدينى « الإسلامى » الممتزج بالتيارات الغنوصية المسيحية .

* * *

مصادر البحث

١ - القرآن الكريم .

٢ - الأصفهانى (أبو النعيم) : حلية الأولياء - طبع القاهرة ، سنة ١٩٣٥ .

٣ - الأعظمى (محمد حسن) : الحقائق الخفية عن الشيعة الفاطمية والإثنى عشرية .

٤ - ابن تيميه (تقى الدين) : منهاج السنة النبوية فى نقض كلام الشيعة . تحقيق د . محمد رشاد سالم ، الطبعة الأولى - القاهرة ، سنة ١٣٢١ هـ .

٥ - ابن خلدون (عبد الرحمن) : مقدمة ابن خلدون .

٦ - ابن عربى (محى الدين) : الفتوحات المكية - طبعة بولاق ، بدون تاريخ .

٧ - ابن المرتضى (الملقب بنور الدين) : درر البحار المصطفى ، طبع ايران سنة ١٣٠١ هـ .

٨ - ابن زهرة : الأصول والأحكام .

٩ - ابن رستم الطبرى : دلائل الإمامة - طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، سنة ١٣٨٩ هـ .

١٠ - آل كاشف الغطاء (محمد الحسين) : أصل الشيعة ، وأصولها ، مطبعة العرفان - صيدا ، سنة ١٣٣٠ .

١١ - البغدادى : الفرق بين الفرق - القاهرة ، سنة ١٣٢٨ هـ .

١٢ - التفتازانى (أبو الوفا) : علم الكلام وبعض مشكلاته - القاهرة ، سنة ١٩٦٦ م .

١٣ - جولد تسيهر (اجنس) : العقيدة والشريعة فى الإسلام . ترجمة : د . محمد يوسف موسى وآخرين - طبع القاهرة ، سنة ١٩٤٥ .

١٤ - الحلى (جمال الدين يوسف بن المطهر) : الألفين الفارق بين الصدق والمين فى إمامة على ، طبع النجف (بدون تاريخ) .

١٥ - دونالدن : عقيدة الشيعة ، طبع مطبعة السعادة - القاهرة ، سنة ١٩٤٦ .

١٦ - الرازى (فخر الدين) : إعتقادات فرق المسلمين والمشركين . القاهرة ، سنة ١٩٢٨ م .

١٧ - الرازى (فخر الدين) : نهاية العقول فى دراية الأصول ، مخطوط بدار الكتب تحت رقم ٧٤٨ (مجلدان) .

١٨ - السلمى (عبد الرحمن) : طبقات الصوفية - تحقيق نور الدين شريبة (نشر جامعة الأزهر سنة ١٩٥٣ م) .

١٩ - السيد (محمد صادق) : الشيعة .

٢٠ - السراج (أبو النصر) : كتاب اللمع . تحقيق : د . عبد الحليم محمود ، وطه عبد الباقى سرور - القاهرة سنة ١٩٦٢ .

٢١ - الشيبى (كل مصطفى) : الصلة بين التصوف والتشيع ، طبع القاهرة سنة ١٩٦٤ .

٢٢ - الشهرستانى : الملل والنحل .

٢٣ - د . صبحى (أحمد محمود) : نظرية الإمامة لدى الشيعة الإثنى عشرة ، طبع دار المعارف سنة ١٩٩ م .

٢٤ - عارف تامر : الإمامة فى الإسلام ، طبع دار الكتاب العربى ، بيروت ١٩٧٣

٢٥ - العاملى (محمد بن الحسن) : الفصول المهمة فى أصول الأئمة - طبع القاهرة ، سنة ١٣٠٤ هـ .

٢٦ - د . عفيفى (أبو العلا) التصوف الثورة الروحية فى الإسلام طبع القاهرة ، سنة ١٩٦٣ م .

٢٧ - عبد الكريم الجيلانى : الإنسان الكامل - طبع القاهرة ، سنة ١٣٨٣ هـ .

٢٨ - د . فان فلوتن : السيادة العربية والشيعة ، الإسرائليات ، ترجمة د ./حسن إبراهيم القاهرة (بدون تاريخ) .

٢٩ - القشيرى (أبو القاسم عبد الكريم) : الرسالة القشيرية - طبع القاهرة ، سنة ١٩٦٦ .

٣٠ - القمى (أبو خلف) : المقالات - نشر ريترليبرج سنة ١٩٣١ م.

٣١ - الكاظمى (محمدى المهدى) : الإمام المنتظر - طبع القاهرة (بدون تاريخ) .

٣٢ - الكلاباذى (أبو بكر) : التعرف لمذهب أهل التصوف - تحقيق : الشيخ محمود النواوى - سنة ١٩٦٩ م .

٣٣ - الكلينى (محمد بن يعقوب) : الكافى فى أصول الدين مخطوط بدار الكتب تحت رقم ٢١٢٢٦ ب .

٣٤ - لويس (برنارد) : أصول الاسماعيلية ؛ ترجمة : خليل أحمد جلو ، جاسم محمد رجب ، طبع دار الكتاب العربى ، القاهرة ١٩٤٧ م .

٣٥ - ماسينيون : شخصيات قلقة ؛ ترجمة : عبد الرحمن بدوى .

٣٦ - ماسينيون : الإسلام والحضارة العربية .

٣٧ - المسعودى (أبو الحسين على بن الحين) : مروج الذهب ومعادن الجوهر - القاهرة (بدون تاريخ) .

٣٨ - المظفرى (محمد الحسين) : تاريخ الشيعة ، مطبعة الزهراء النجف سنة ١٣٥٢ هـ .

٣٩ - المعجم المفهرس لآيات القرآن الكريم .

٤٠ - المفيد (الشيخ محمد بن النعمان) : شرح عقائد الصندوق أو تصحيح الإعتقاد تحقيق هبة الدين طبع القاهرة - بدون تاريخ .

٤١ - محمد كامل حسين : طائفة الإسماعيلية تاريخها - نظامها - عقائدها - نشر مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٥ .

٤٢ - د. النشار (على سامى) : نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام (جـ ٢) طبع دار المعارف سنة ١٩٦٥ .

٤٣ - النوبختى : فرق الشيعة ، نشر ريترليبزج سنة ١٩٣١ م .

٤٤ - نيكلسون : التصوف الإسلامى وتاريخه ترجمة : د . أبو العلا عفيفى ، طبع القاهرة (بدون تاريخ) .

٤٥ - الهجويرى : كشف المحجوب - ترجمة : نيكلسون القاهرة .

٤٦ - اليمانى (محمد بن مالك) كشف أسرار الباطنية - طبع القاهرة (بدون تاريخ) .

* * *

● مراجع أجنبية

Figgs I . N : The Divine Rights Of The Kings (London I9 56)

* * *

محتويات الكتاب

الصفحة

* * *

رقم الإيداع : ٧١٢٢ - ٩١
I.S.B.N : 977 - 5200 - 07 - 5